سيرة أهل البيت عليهم السلام

من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

١٣٤٦ هـ - ١٤٢٤ هـ

إعداد
مصطفى آل مرهون

منشورات
مركز دار المصطفى لإحياء التراث

سيرة أهل البيت عليهم السلام

من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

١٣٤٦هـ - ١٤٢٤هـ

إعداد

مصطفى آل مرهون

الجزء الثالث

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

جميع الحقوق محفوظة

لشرف التحقيق

مصطفى الشيخ عبد الحميد آل مرهون

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كتابخانه
ات كامپيوترى علوم اسلامى
٥٤٢٨٨

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المحقق والناشر تحت طائلة الملاحقة الشرعية والقانونية

يطلب من:

لبنان ـ بيروت ـ جادة السيد هادي ـ مفرق الرويس ـ بناية اللؤلؤة ط١ ـ هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢ - ٧٠٠٦٦٦٩١ - ٠٠٩٦١

سوريا ـ ص.ب: ٧٣٣ ـ السيدة زينب محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤ و٠٩٩٤٠٧٣٥٥٤

مؤسسة المصطفى: إيران ـ قم ـ خ سميه ـ ١٦ متري عباس آباد بلاك ٢٤

هاتف: ٧٧٣٨٨٥٥ ـ ٠٠٩٨٢٥١

البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com

منشورات

مركز دار المصطفى لإحياء التراث

الفصل الرابع عشر
الحجة ﷺ

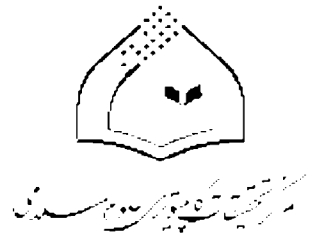

﴿٥٧﴾

وراثة الأرض واستعمارها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الاستعداد العلمي والأخلاقي لحمل الرسالة

الزبور هو مجموعة الكتب السماوية؛ لأن الزبْر هو عبارة عن الكتابة، وكل الكتب السماوية مكتوبة. فالمقصود بالزبور إذن هو رسالات السماء التي حملها الأنبياء عليهم السلام، والذكر يقصد به اللوح المحفوظ، وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة: أنا قد قضينا بأن الأرض يرثها عبادنا الصالحون، وأنها ستكون لهم وحدهم دون غيرهم.

إن كتب السماء تحمل الحقائق دون شكّ، لكن التوصّل إلى معرفة هذه الحقائق يحتاج إلى تبحّر واستعداد علمي؛ كي يتمكّن الإنسان من إدراك كنهها. وبتعبير آخر: إن الآيات الكريمة هي عبارة عن فيض من العطاء على مستويات عدّة من العلم والمعرفة والإخبار عن المغيّبات، لكن

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

يجب أن تكون في أيدٍ أمينة، وهم أهل العلم والمعرفة الذين يختصّهم الله تعالىٰ، وهم المعبّر عنهم بالراسخين في العلم[١]. فالذي يريد أن يتناول آية من آيات الكتاب دون أن يكون له حظّ من العلم فإنه سيخلط الأُمور ببعضها، أو أنها هي ستختلط عليه. وهذا أيضاً يشمل من عنده علم لكنه لا يمتلك أي خلفية دينية؛ فإنه سيخلط الأُمور أيضاً وسيصرف الآيات عن معانيها إلى معانٍ أُخرى تمليها عليه نفسه.

جاءني أحدهم يسأل فقال: إن أحد المتحاملين على أمير المؤمنين عليه السلام يعترض على ما ينسب له عليه السلام حول قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢]، وأشياء أُخرى ثابتة في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام، كقلع باب خيبر، فيقول: إن هذه الأُمور كلّها تنسب كذباً إلى أمير المؤمنين عليه السلام. ومثل هذا لا يستبعد منه أن يقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام شخصيّة وهمية وليس لها وجود، ونحن لا نلوم هذا؛ فالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول لأمير المؤمنين عليه السلام: «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق»[٣]. ورحم الله صفي الدين الحلي؛ حيث يقول:

بحبِّ عليٍّ تسرُّ النفوسُ ... وتزكو القلوبُ وتحلو الثمارْ

فإنْ رأيتَ له مبغضاً ... ففي أصلِهِ نسبٌ مستعارْ

على أية حال إن هذا الأمر لا يضير أمير المؤمنين عليه السلام بشيء، ولا ينقص من قدره ومكانته.

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ آل عمران: ٧.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨. الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨.

أقسام النصّ القرآني

فقوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يقرّر أن الصالحين سيرثون الأرض ، لكن ما المراد من الأرض هنا؟ وأود أن ألفت النظر هنا إلى نقطة هامة وهي أن النص القرآني يكون عبارة عن قسمين:

الأول: النصّ

فهو أحياناً لا يحتمل إلّا وجهاً واحداً ، وفي مثل هذه الحالة يصبح نصاً بالمعنى الاصطلاحي ، فلا مجال لحمله على معنى آخر غير الذي وضع له. ومثال ذلك قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] ، فهو نص لا مجال للاجتهاد فيه ، ولا إلى توجيهه إلى معنى جديد غير الذي وضع له؛ لأنه نصّ صريح لا يحتمل إلّا معنى واحداً.

الثاني: الظاهر

أمّا إذا كان يحتمل معاني عدّة؛ ففي هذه الحالة إذا كان المعنى راجحاً ، فإننا نسميه ظاهراً ، وإن كان المعنى مرجوحاً ، فإننا نسميه مؤولاً.

المبحث الثاني: المقصود من الأرض

وعلى ضوء هذا التقريب لنرَ هذه الآية من أي الاقسام هي ، إن الناظر إلى هذه الآية بعد التأمّل والتدقيق سيجد أنها من النوع الثاني من القسم الثاني. وسأوضح هذا المعنى إن شاء الله تعالى خلال استعراضي لبعض النقاط الرئيسة التي يتضمّنها البحث. فللمفسّرين ثلاثة آراء حول المراد من الأرض في الآية :

---

(١) الإخلاص : ١.

الرأي الأوّل : أنها الجنة

إن بعض المفسرين يذهبون إلى أن المراد بالأرض هنا هي الجنّة؛ بدليل قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[1].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية إن لسان الآية فيه عموم، فالأرض لو كانت هي هذه الأرض التي نحن عليها لرأينا أن هناك تناقضاً بين الآية والواقع؛ لأن الصالحين لم يرثوا من هذه الأرض شيئاً، فهي كلّها لغير الصالحين والواقع يقول هذا ولا يمكن لأحد أن ينكره، فالأرض كلها الآن بأيدي الكفرة، فسيبيريا وحدها بحجم البلاد العربيّة وهي بأيدي الكفرة، وقطعة من بلادهم. إذن الأراضي اليوم قد ورثها غير الصالحين، وقد لا يحصل فيها صالح على قطعة أرض يعيش عليها، وهؤلاء غالباً هم حملة الرسالات، والدعاة إلى الإيمان؛ ولذا فانهم كانوا ولا زالوا مطاردين لا يجدون مكاناً يستقرّون فيه. وقد سئل أحدهم: أين أنت حين طلبك الحجاج؟ فقال: بحيث يقول الشاعر:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى وصوّت إنسانٌ فكدت أطيرُ[2]

وهذا البيت يصوّر حال الصلحاء ـ الذين هم غالباً ما يكون شأنهم هكذا ـ أفضل تصوير. ولأضرب لك مثلاً واحداً يشهد بصحّة هذا،

---

(١) الزمر: ٧٤.

(٢) الكنى والألقاب ٣: ٢٤٥، وفيه أن إبراهيم النخعي تمثّل به حين سئل: أين كنت حين طلبك الحجاج؟ غريب الحديث (الحربي) ٣: ٩٤٩، معجم البلدان ٢: ٤٨٣، وفيه أنه للأحيمر السعدي، وكان قد أتى العراق فقطع الطريق، فطلبه أمير البصرة سليمان بن علي وأهدر دمه، فهرب وذكر حنينه إلى وطنه، فأنشد قصيدة منها هذا البيت.

فسعيد بن جبير رضي الله عنه كان قد طارده الحجاج مطاردة مروعة بعد فشل ثورة القرّاء، وضيّق عليه الخناق حتى لم يكن يجد موطئ قدم يلوذ به ويلجأ إليه، وبث العيون في كل النواحي تترصّده وأرسل الطلب خلفه يتعقّبونه، حتى وصل به الأمر أن نزل قرب دير. وكانت الشرطة تجدّ في طلبه حتى وصلت إلى الدير الذي نزل قربه، فرأوا راهباً في صومعته، فسألوه عنه فدلّهم عليه.

فانطلقوا فوجدوه ساجداً يناجي ربّه، فدنوا منه وسلموا عليه، فأتمّ بقيّة صلاته، ثم ردّ السلام عليهم، فقالوا له: إنا رسل الحجّاج إليك، فأجبه. فقام معهم حتى انتهوا إلى دير الراهب، فقال لهم الراهب: يا معشر الفرسان، اصعدوا؛ فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير. فلما همّوا بالصعود أبى سعيد أن يدخل معهم، فقالوا: ما نراك إلّا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكني لا أدخل منزل مشرك أبداً. قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. قال: لاضير، إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرساً تحرسني. فقالوا: فأنت من الأنبياء؟ قال: ما أنا من الأنبياء، ولكن عبد من عبيد الله تعالى مذنب.

ثم أعطاهم موثقاً ألّا يبرح مكانه حتى يُصبح، فرضوا بذلك، ولما صعدوا إذا هم بلبوة قد أقبلت، فلمّا دنت من سعيد تمسّحت به، ثم ربضت قريباً منه، وأقبل الأسد فصنع كذلك، فأمرّ سعيد يديه على رأسيهما، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا، نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله، ففسّر له سعيد ذلك كلّه، فأسلم.

ثم جاء به القوم إلى الحجّاج، فقال لهم: أتيتموني بسعيد بن جبير؟ قالوا: نعم، وعاينّا منه العجب. فصرف بوجهه عنهم، وقال: أدخلوه عليّ.

فخرج المتلمّس[١] فقال لسعيد: أستودعك الله، وأقرأ عليك السلام.

فأُدخل عليه. فقال له الحجّاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير. قال: أنت شقي بن كسير. قال: بل أُمي كانت أعلم باسمي منك. قال: شقيت أنت وشقيت أُمّك. قال: الغيب يعلمه غيرك، فلم تنعتني وإيّاها بالشقاء؟ فقال له: لأُبدلنّك بالدنيا ناراً تلظّى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً.

ثم سأله: ما قولك في محمد صلى الله عليه وآله؟ قال: نبي الرحمة، وإمام الهدى. قال: فما قولك في علي؛ في الجنة هو أم في النار؟ قال: لو دخلتها، فرأيت أهلها عرفت. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي. قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عنده. قال: أبيت أن تصدقني. فقال: إني لم أُحبّ أن أكذبك. قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: لم تستوِ القلوب. فقال: ويلك يا سعيد. قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأُدخل النار. قال: اختر أي قتلة تريد أن أقتلك. قال: اختر أنت لنفسك يا حجّاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلّا قتلتك قتلة في الآخرة. قال: فتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولاعذر.

ثم أمر الحجّاج بالنطع وقال: اذهبوا به فاقتلوه. فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢]. قال: شدّوا به لغير القبلة. فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٣]. قال: كبوه لوجهه. قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[٤]. قال: اذبحوه. قال: إني

(١) كان قائد الحملة المكلّفة بالبحث عن سعيد عليه السلام.

(٢) الأنعام: ٧٩. (٣) البقرة: ١١٥.

(٤) طه: ٥٥.

أشهد وأحاجّ أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة. ثم دعا سعيد الله تعالى وقال: اللهم لا تسلّطه على أحد يقتله بعدي. فذبح على النطع.

وهكذا كان؛ إذ مات بعده بخمس عشرة ليلة لم يستقرّ فيها لحظة، فقد كان إذا نام رآه في المنام وهو يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو اللّه، فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير، مالي ولسعيد بن جبير؟[1]. ولذا يقول له أحد الأدباء:

بعض التفكّر يا فتى ... فأخو الحصافة ما انتبز

هل أنت في أمن من الـ ... أحداثِ تعصفُ والغِيَز

أو ما رأيت سجونَ وا ... سطَ كالهشيمِ المحتضرْ

ومقاصرَ الحجّاجِ تض ... حكُ في مدارِجِها العبرْ

كُتب الخلودُ بها لمج ... زورٍ وليس لمن جزرْ

أضحى بها ابنُ جبير يُتـ ... ـلى مثلَ فاتحةِ السورْ

فانظر عاقبة المتّقين وعاقبة المفسدين؛ فأين الحجاج الآن؟ وأين ضخامة بنائه؟ الحجّاج لم يكن إلّا تراباً على ظهر الأرض وعاراً في بطون الكتب ولعنة في أذهان الناس و على ألسنتهم، وهذه هي عاقبة الظالمين.

فهذه الأرض لم تكن دائماً إرثاً للصالحين، بل قد لا يملك الصالحون فيها موطئ قدم، وقد ضاقت على سعيد وأمثاله من المؤمنين؛ وهذا يدلّ بشكل واضح على أن الأرض التي وعد الله تعالى بها المؤمنين هي الجنّة.

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٦٠، الطبقات الكبرى ٦: ٢٦٥، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٢٨، حلية الأولياء ٢: ٢٩٠ / ٤.

كما أن هؤلاء يقولون: إن القرآن الكريم لا يمكن أن يحمل على الظاهر دائماً؛ لأن هذا الظاهر يصطدم بالواقع أحياناً؛ فكان لا بدّ من تخصيصه بالواقع، وهو ما يعبّر عنه بأنه عموم مخصّص بالواقع. فالقرآن الكريم لا يمكن أن يكون فيه كذب حاشا لله، وعليه فلا بدّ من تأويل هذه الآية بأنها الجنة؛ حتى لا يقع التكاذب.

بيان

قد بيّنت أكثر من مرّة أننا عندما نرجع إلى الروايات فينبغي أن نأخذ منها على الإجمال ما ورد على لسان المعصومين عليهم السلام، وبالطريق الصحيح السالم من المؤاخذة. والغرض من هذا البيان هو أنني أُريد أن أُبيّن حقيقة ناصعة هي أن القطعة الصغيرة التي يعيش عليها المؤمن تعادل الدنيا بما فيها من نعيم وملذّات، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «اللهم إن كنت حبست عنّا النصر عاجلاً، فاجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً في مستقرّ رحمتك، واجمع بيننا وبينهم تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلّك»[1].

الرأي الثاني: أنها أرض القدس

وهذا ما يميل إليه بعض المفسّرين الذين يذهبون إلى أن المراد بالأرض في الآية الكريمة أرض القدس، أي أرض القبلة الأُولى؛ فبيت المقدس كان قبلة المسلمين أوّل الأمر حينما شرعت الصلاة.

علّة جعل بيت المقدس قبلة

والظاهر أن المراد من تشريع القبلة إلى بيت المقدس هو أن الله تعالى

---

(١) قريب منه في الإرشاد ٢: ١٠٨، مثير الأحزان ٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.

يريد أن يثبت للعرب في ذلك الوقت أن التوجّه بالعبادة هو ليس استمراراً لتوجّههم إلى الكعبة ـ ذلك أنهم كانوا يتوجّهون إليها في عباداتهم ـ لأن الله تعالى ليس في جهة، بل إن التوجّه إلى أي جهة يأمر بها هو توجّه إليه تعالىٰ، وليس بالضرورة أن يكون ذلك إلى الكعبة. ولذلك توجّه المسلمون أوّل الأمر إلى بيت المقدس مدّة طويلة؛ لأنه أرض مقدّسة، وهي الأرض التي بارك الله تعالى فيها[1]، وهي مصلّى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأنبياء عليهم السلام كلهم. كما أنه هو المكان العزيز علينا بكلّ ما فيه من آثار، والذي تربطنا به رابطة العقيدة والروح والوجود والكرامة والدم.

ولا شك أن بيت المقدس من الأماكن العزيزة على نفس كلّ مسلم يتوجّه يومياً إلى الله عزّ وجلّ؛ فهو يذكر أن هذه المنطقة كانت في يوم من الأيام قبلة أسلافه الأُولى. كما أنها ترتبط بمشاعرنا من ناحية تاريخية.. ترتبط بمشاعرنا من ناحية الإسراء والمعراج. وهي الآن تشكّل وصمة عار علينا جميعاً لما تتعرّض له من تدنيس على أيدي حفنة من اليهود الذين اغتصبوها من أيدي كلّ هذه الأُمم الإسلاميّة. وبناء على هذا الوعد الذي تقرّره هذه الآية الكريمة يقول أحد الأُدباء:

بصماتُ المسيحِ فوق ثراهُ ... وشذا من عبيرِه فوّاحُ

وبه من محمدٍ قسماتٌ ... يجتلي حسنَها السنا اللمّاحُ

سيعود السلامُ يا بلدَ القد ... سِ وشيكاً ويطردُ السفّاحُ

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ الإسراء: ١.

وســـــتزهو مـــلاعبٌ بـــالصبايا وتـــنثُ الهـــوى وجـــوهُ صـــباحُ
ليس حـــلماً يـــا أرض قـــدسٍ ولكـــن كـــفُ قـــومي بـــدا بـــها مـــفتاحُ[١]

فرية عبد الله بن سبأ

وللحقيقة أقول: إننا قد ابتلينا باليهود وبأذنابهم، وإلّا فإنه لم يكافح أحدٌ اليهودَ على مرّ التاريخ كما كافحناهم نحن الشيعة، ونحن الآن نرفع شرف مكافحة اليهود، ففي الجنوب اللبناني الشيعي ترتفع الأصوات وتلعلع الأسلحة وهي تبارز اليهود[٢]. فلتخرس جميع الأصوات التي ترمينا بأننا يهود، فاليهود غيرنا وليس نحن وعندما نسأل هذا المفتري علينا فريتَه هذه عن سبب إطلاقها ضدّنا، وعن دليله عليها، فإنه يتذرّع بشخصيّة مفتعلة اسمها عبد الله بن سبأ. ونحن نقول لهذا المفتري: إذا كنت ترمينا بعبد الله بن سبأ واحد، فأنت عندك مئة عبد الله بن سبأ، ومع ذلك نجدك تنزّه نفسك عن وصمة اليهوديّة وتدّعي أنك لست يهودياً. مع أن هذه الشخصية هي شخصيّة وهمية لا وجود لها، وهذا ما يقول به حتى كتّابكم[٣].

ولو تنزّلنا وفرضنا أنه شخصيّة حقيقيّة، فهل يعني هذا أن تصبح الأُمة كلّها يهوديّة؟ هذه كتبنا وهذا تاريخنا ابتداء من أمير المؤمنين عليه السلام وإلى الآن يشهد بذلك؛ ونحن نسأل: على يدي من قتل مرحب؟ فإن كان هناك من يقول: إنه لم يقتله علي بن أبي طالب عليه السلام فإن هذا لا مجال للحديث

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٧٢.

(٢) وكذلك يوم القدس العالمي الذي أُعلن في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك من كل عام.

(٣) لمزيد من الاطّلاع يراجع كتاب (عبد الله بن سبأ) للباحث السيد مرتضى العسكري.

معه؛ لأنه مكابر وعار على الدنيا، وعار على الذوق الإنساني وعلى التاريخ.

وهل علي بن أبي طالب عليه السلام محسوب على جهة أو منسوب إلى فئة من المسلمين دون غيرها؟ إنه عطاء للمسلمين كافّة، وهو سيف مشهور دون كلمة الله تعالى.

إذن فسيوفنا قد قارعت اليهود وكذلك سواعدنا قُطعت من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وطرد الفكر اليهودي وهي تحاربهم، أما أقلامنا فهي من أول الأقلام التي قارعت اليهود عبر التاريخ، ودونك تفاسيرنا تشهد بذلك، فهي خالية من الإسرائيليّات التي تزخر بها تفاسير غيرنا مثل خبر الجسّاسة[1]. والذي له صلة بهذا التاريخ يعرف هذا المعنى. إننا قاتلنا اليهود وما زلنا نقاتلهم؛ فكراً وقلماً وسيفاً وساعداً.

إذن المقصود بالأرض التي سيرثها الصالحون ـ الأرض الموعودة ـ هي أرض بيت المقدس.. أرض القبلة الأُولى والمقدسات.. البلدة التي ابتليت باليهود؛ حيث دنّستها أقدامهم. ونحن لا ننكر أن هذه التربة الطاهرة قد ارتوت من دماء المجاهدين، فهي كانت ولازالت تشكّل بؤرة صراع بين الحقّ والباطل، لكن لا يمكن أن يرفع العار عن جباه المسلمين حتى يستردّوا هذه الأرض الطاهرة ويسترجعوها من أيدي اليهود الغزاة الكفرة. والقرآن الكريم يعطينا هذا الوعد ويذكّرنا أن هذه التربة.. تربة بيت المقدس ستكون مرتع الصالحين من عباده.

---

(١) انظر: مسند أحمد ٦: ٣٧٣، ٣٧٤، ٤١٢، ٤١٧، ٤١٨، صحيح مسلم ٨: ٢٠٤، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٥٥ / ٤٠٧٤.

الرأي الثالث: أنها هذه الأرض المعروفة

فالمقصود بالأرض التي سيرثها الصالحون وفق هذا الرأي هي كل هذه الأرض التي نعيش عليها. لكن لنا أن نتساءل: كيف يرثها الصالحون؟ وما معنى هذه الوراثة؟ هل معناها أن هناك من يملك الأرض ولا يعلم ما الذي أودعه الله تعالى فيها ولا كيف يستثمرها، وأن الذي يعرف كيف يستثمرها هو الذي سيرثها؟

أقسام العوامل البيئيّة

ولكي أُقرّب لك هذا المعنى أقول: إن علماء البيولوجيا يقسمون عوامل البيئة إلى قسمين هما:

الأوّل: العوامل الجامدة (Physical factors)

وهي عوامل البيئة الجامدة وإنما سميت عوامل جامدة؛ لأن المقصود بها خواصّ الأرض التي تشكّل النصف الأكبر من عوامل البيئة، وهي الحرارة والهواء والجاذبيّة وخواصّ التربة ومكوّنات الأرض وتضاريسها.

الثاني: العوامل الحيّة (Living factors)[1]

والمقصود بها الأحياء التي تعمر الأرض، وهي التي يعبّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[2]، فيأتي الفلّاح ليبذر البذرة ويذهب وهو لا يعلم ما الذي يحصل بعد ذلك من عوامل تخدم هذه البذرة حيث إنها تخدمها المليارات من البكتريا الموجودة في جوف الأرض، وهي تهيئ لها الأسمدة والاملاح. ثم إن مكونات التربة المغذية للنبات تستخرج وتحضر معملياً حيث يحقن بها النبات ومنها

---

(١) Living agent.

(٢) المدّثر: ٣١.

الأوكسينات والفايتمينات وغيرها، وكل هذا دلّتنا عليه الكشوفات العلميّة التي اضطلع بها أهلها.

كما أن هناك أشياء أُخرى بعضها قد يكون غريباً كاستخراج الماء من الأرض، وهم أشخاص موهوبون، وأولهم «بازل فالنتيني» الذي عاش في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي، حيث كان يحمل عصا يستدلّ بها على وجود الماء تحت الأرض. ثم جاءت من بعده الكشوفات العلميّة الحديثة التي تتعرّف على مواقع المياه الجوفية.

فهؤلاء هم الذين يستفيدون من الأرض وليس نحن الذين لا نستطيع أن نستخرج المعادن منها، ولا أن نستثمرها، ولا نعرف نوع الزراعة التي تصلح لها. إذن فالذي يعرف هذه الأشياء هو المالك الحقيقي للأرض، وليس نحن. فقوله تعالىٰ: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ تعبيره واضح في أن وارث الأمر هو الذي يملك الاستعداد لاستثمارها.

وهذا الرأي نقله أحد الكتّاب في كتابه (بدع التفاسير)، وحمل على صاحبه حملة شديدة، واتّهمه بأنه يدعو الاستعمار إلى احتلال أراضينا، ووصفها بأنها دعوة مقنعة للاستعمار. لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تسبق الاستعمار وتستخرج خيرات الأرض وما فيها من معادن وغيرها؟ ولماذا لا تستثمر البيئة بكل ما فيها وقد سخّرها الله تعالى لك؟ إننا نتمنّى أن نجد من أبنائنا هذا الحرص، وأن نجد فيهم من يستثمر خيراتنا ولا يدع الأجنبي يدخل بلادنا ليستثمرها هو. لكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بالواقع المرّ الذي نعيشه، والذي يجب أن نتأقلم مع آثار الاعتراف به، إننا لا نستطيع بما نملك من إمكانات أن نستثمر هذه الخيرات التي منحنا الله تعالى إياها، فيجب أن نشمّر عن السواعد وأن نتوجّه إلى استثمارها

والاستفادة منها. وإلّا فإن من غير الصحيح أن يتفضّل الله تعالى علينا بكلّ هذه النعم ولا نتوجّه إلى الاستفادة منها، فبلادنا مليئة بالكنوز ونحن غافلون عن استثمارها. فهل إننا لا نعرف كيف يتم ذلك، أم أن القسم الأكبر منا لاهون عنها بالصراعات المحتدمة فيما بينهم. وتكفير بعضهم البعض. فالواجب أن نتوّجه إلى الجانب المهم من المسألة الذي يرتبط بوجودنا مباشرة، وأن نشغله بما يسده ويصبّ في مصلحتنا.

فهذه الحملة ليست في محلّها أبداً، فالأرض فعلاً هي التي يجب أن يرثها الصالحون الذين يعرفون كيف يستثمرونها وكيف يوجّهون الطاقات المخزونة فيها، والكنوز المودعة بها في خدمة الإنسان والبلد. ولا شك أن هؤلاء الصالحين هم الذين سيرثون الأرض ومن عليها، وسيأخذونها منا شئنا أم أبينا، ولن يبقى لنا سوى الاسم، أي أنها ستكون حينها أرضنا بالاسم فقط، لكن الغير هو من يستثمرها ويأخذ من عطائها ما لا نقوى نحن على حصره ومعرفته والإفادة منه.

وهذا في الواقع شيء مؤلم، والمسلمون بأجمعهم مدعوّون إلى أن يتصرّفوا بما منحهم الله عزّ وجلّ من ثروات وخيرات تصرّفاً لائقاً يتناسب مع ضمان هذه الثروات، وأن يتعلّموا كيف يستغلّونها، وكيف يفجّرون خيرات الأرض ويستنبطونها ويصنعونها ويوجّهونها لما فيه خيرهم وخير دينهم وخدمته. وليُعلم بأن الأُمم الأُخرى تحسدنا على ما عندنا من ثروات حسداً عظيماً، فكيف يمكننا أن نتّقي هذا الحسد؟ إن من الممكن أن نتّقيه بالجدّ وبذل الوسع والطاقة في تحصيل المعارف والعلوم، والله تعالى قد دفعنا إلى العلم وتعلّمه، ولم يخصّ ذلك بعلم

من العلوم[١].

العلم ليس للأديان والأبدان فقط!

وقد رأيت بعض الكتّاب الإسلاميّين الذين يتناولون هذا الجانب يقولون: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، والمقصود بهما العقيدة والطب، لكن لنا أن نسأل: هل إن الاجتماع والفيزياء والكيمياء والنفس والفضاء ليست علوماً؟ يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به. وإنّه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء»[٢]. وهذا لا ينافي أي علم من العلوم التي تخدم الإنسانية، فكل واحد منها بحدّ ذاته يعدّ علماً محبوباً إلى الله. إذن ماهو الداعي إلى حصر العلوم بهذين الجانبين فقط؟

ومن هذا نعلم بأننا مدعوّون إلى الاستفادة من طاقاتنا الذهنيّة والبدنيّة؛ كيلا نسمح لها أن تذهب إلى أيدي غيرنا، وهو ما يحصل الآن. وما يجري في بعض البلاد الإسلاميّة الغنيّة شيء يؤسف له؛ حيث تجد أحدهم لا ينزل إلى عمل من الأعمال البدنيّة المرهقة في حين أننا نرى هذا الذي كان يعيش في جنة من الجنان يأتي بهذا الحرّ الشديد الذي ربما يصل إلى ٥٠ ٪، وينزل إلى بئر عمقها سبعون متراً ثم بعد ذلك يخرج ملطّخاً بالزيوت والأوساخ من أجل أن يعمل وأن يستثمر طاقاته

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ الرحمن: ٣٣.

(٢) الجامع الصحيح (سنن الترمذيّ) ٥: ٤٨-٤٩ / ٢٦٨٢.

وقدراته وطاقات الأرض وقدراتها، وهو إلى ذلك يملك قلباً من أروع ما يكون، في حين أننا نأنف من هذا العمل، ونحاذر أن تتّسخ ثيابنا أو أن يصيبها الغبار. كان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج من المسجد ثم يمرّ بميثم رضي الله عنه ويشتري منه شيئاً من التمر، ثم يحمله بيده الشريفة، فيتلقّاه شرطة الخميس ويطلبون منه حمل هذا التمر، فيقول: «ربّ العيال أحقّ بحمله»[1].

فانظر إلى هذه العصامية الرائعة التي تمثّل لنا أروع درس عملي في أن نتولّى زمام أمورنا بأنفسنا، وأن نباشر حاجاتنا دون الاتّكال على غيرنا. أما المتبطّرون كما يروى[2]، فينادي أحدهم ـ وهو المأمون ـ غلامه ويأمره بأن يصبّ الماء على يده ليتوضّأ، فنهاه الإمام الرضا عليه السلام وقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدا﴾[3].

إذن فالأرض إنما يرثها من حمل العلم والفكر والمعرفة. وهذا هو الذي يحصل على أرض الواقع؛ فالأرض الآن مليئة بالخيرات ولم يستثمرها ويوصلها إلى ما هي عليه الآن غير العلماء.

الرأي الرابع: أنها دولة المهدي عليه السلام

إن أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن المراد بالأرض التي يرثها العباد الصالحون هي الأرض التي تكون في زمان دولة الإمام المهدي عليه السلام؛ حيث إنه عليه السلام سيملؤها عدلاً وقسطاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً. فالأرض مرت

---

(١) الغارات ١ : ٨٩، مناقب آل أبي طالب ١ : ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢ : ٤٨٩، البداية والنهاية ٨ : ٦، كنز العمّال ١٣ : ١٨٠ / ٣٦٥٣٧.

(٢) الإرشاد : ٣١٥، وسائل الشيعة ١ : ٤٧٨ / ١٢٦٩.

(٣) الكهف : ١١٠.

على امتداد تاريخها الطويل بأزمان سيطرت فيها الانحرافات والظلم والفساد، فالذي ينبغي أن يكون إذن هو أن يسيطر عليها زمان العدل والقسط. وهذا هو لسان الحديث النبوي الشريف الذي يفسّر لنا هذه الآية، تروي كتب الصحاح أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج من أهلي من يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[١].

وهذا ما عليه المذاهب الإسلامية كافّة. روى الثعلبي في تفسيره أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «نحن ولد عبد المطلب سادة الجنة؛ أنا وحمزة وجعفر وعلي والحسن والحسين والمهدي»[٢]. فبأي معنىً وبأي صفة يكونون سادة الجنة؟ طبعاً بما يستحقّون به ذلك كنتيجة طبيعيّة لما قدّموه من عطاء للإنسانية. فإمامنا الذي ننتظره يستحقّ أن يكون من سادات الجنة، يقول الحديث الذي يرويه أبو داود وينتهي إسناده إلى أبي هريرة: «كيف بكم إذا نزل عيسى بن مريم وإمامكم منكم يصلّي به»[٣].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٧، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣ / ٢٢٣٨، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.
وقد روي في كثير من الكتب من غير لفظ: «لطوّل الله ذلك اليوم»، انظر: سنن ابن ماجة ٢: ٩٢٩ / ٢٧٧٩، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ ـ ٣١٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٩، صحيح ابن حبّان ١٣: ٢٨٣ ـ ٢٨٣، المعجم الكبير ١٠: ١٣٣، المعجم الأوسط ٢: ٩٩، وغيرها.

(٢) عنه في بحار الأنوار ١٥: ١٠٣، وانظر: سنن ابن ماجة ٢: ١٣٨٦ / ٧٠٨٧، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢١١، ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) لم نعثر عليه عند أبي داود، وقريب منه ما في سننه ٢: ٣١٩ / ٤٣٢٤، وهو مروي في الإصابة ٤: ٦٣٧. وقد نقل في فتح الباري ٦: ٣٥٨، عن الشافعي، وفي عون المعبود ١١: ٣٠٧ أن الأخبار متواترة في نزول النبي عيسى بن مريم عليه السلام وصلاته خلف الإمام المهدي عليه السلام، بل في (عون المعبود) أنه عليه السلام ينزل بجسده العنصري.

يقول عيسى بن صبيح: دخل العسكري عليه السلام الحبس علينا وكنت به عارفاً، فقال لي: «لك خمس وستّون سنة وشهر ويومان؟». وكان معي كتاب دعاء عليه تاريخ مولدي، فنظرت فيه فكان كما قال، ثم قال: «هل رزقت من ولد؟». قلت: لا. قال: «اللهم ارزقه ولداً يكون له عضداً؛ فنعم العضد الولد». ثم تمثّل:

«من كان ذا ولدٍ يدرك ظلامتَه ... إن الذليلَ الذي ليس له ولدُ»

فقلت له: ألك ولد؟ قال: «إي والله، سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، فأما الآن فلا». ثم تمثل وقال:

«لعلك يوماً أن ترانسي كأنما ... بسنّي حوالي الأسودُ اللوابدُ
فإن تميماً قبل أن تلذ الحصى ... أقام زماناً وهو في الناس واحدُ»[1]

وفعلاً رزقه الله إمام العصر الموعود المنتظر عليه السلام الذي تتوق إليه أبصار المؤمنين.

التشكيك بقضية المهدي عليه السلام

إن من يظنّ أننا نعيش في حالة من الوهم أو الخيال لاعتقادنا بمسألة المهدي المنتظر عليه السلام، أو أننا نعيش حالة تعويض[2] كما هو دأب الكثير من الكتّاب فإنما يخادع نفسه؛ لأن قضية المهدي عليه السلام ثابتة بالسنة المتواترة عند الفرق الإسلامية كافّة. إن هؤلاء الكتّاب يطرحون هذه الفكرة، وهي أن الشيعة قد مرّوا بتاريخ تعرّضوا فيه إلى إبادة وسجن، مما أدّى بهم إلى

---

(١) الخرائج والجرائح: ٣١٩، كشف الغمّة ٣: ٣٠٧.

(٢) أو ما يسمى بإيجاد المعادل الموضوعي.

أن يكونوا تحت سيطرة حلم من أحلام اليقظة، أي أنهم راحوا يعوّضون الواقع المرّ بالأحلام فيتصوّرون أن هؤلاء الظلمة ستدول دولتهم؛ لخروج من ينتقم منهم ويأخذ بحقّهم لهم. وهذا ما يسمى بعمليّة التعويض.

والواقع أن الأمر خلاف ذلك؛ إذ أن جميع المذاهب الإسلاميّة يقولون بأن من لم يؤمن بالمهدي فهو كافر، بمعنى أنه ينكر ضرورة من ضرورات الدين. وكلّ الكتاب الذين هم على علم بمعرفة علوم الشريعة حينما يتناولون موضوع الإمام المهدي عليه السلام فإنهم يتعاملون معه على أنه حقيقة ثابتة لا سبيل إلى نكرانها، وكل ما في الأمر أنهم يقولون بأنه غير موجود الآن، وأنه سيولد بعد ذلك في آخر الزمان.

أما بناء على نظريتنا ـ من أن الأرض لا تخلو من حجة[1]، وأنه ليس من الضروري أن نلتقيه أو نراه ـ فإنه عليه السلام مولود حي غائب. والاعتراض بكونه غائباً وبالتالي يكون وجوده كعدمه من جهة عدم إمكان الالتقاء به لا ينهض حجة ومبرراً لنقض فكرة الإمام المهدي عليه السلام؛ فنحن في هذا الزمان نعيش في بلد ونرجع إلى علماء يعيشون في بلد آخر، وتفصلنا عنهم مسافات بعيدة، ومع ذلك فإننا ننتفع بعلمهم وآرائهم ونظرياتهم. فغيبة الإمام عليه السلام هي غيبة عن الأبصار وليست غيبة عن الوجود. وهنا الفرق واضح؛ إذ أنه ربّما حضر مجالس العلماء وطرح رأيه وفكره في مسألة ما

---

(١) الأصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢ / ٤٥، ٢٣٤ / ١٩٣، ٢٣٦ / ٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨ / ١، ٤٨٩ / ٤، ٥٠٥ ـ ٥٠٦ / ٤، ٩ ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧ / ١٧، ٥٠٩ / ٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

مع أفكار وآراء العلماء، وبالتالي فإننا نستفيد منه ومن وجوده.

وهذا ما تنصّ عليه الآيات الكريمة التي تأخذ بأعناقنا وتخبرنا بأنه موجود يعيش بين ظهرانينا ويشكل مصدر أمان لأهل الأرض: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[1].

وإذا كانت هذه هي العلّة بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله، فالإمام عليه السلام هو امتداد للنبي ومتمّم لخطّه، وقد جعله الله أماناً لأهل الأرض، يقول الحديث الشريف: «النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتىٰ أهل السماء مايكرهون، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي أتىٰ أهل الأرض مايكرهون»[2].

فهذه النصوص ونظائرها تأخذ بأعناقنا للاعتراف بوجود الإمام عليه السلام، وأنه حقيقة قائمة وواقعة، وهو يعيش بيننا؛ وبالتالي فإننا لا نجترّ الأحلام ولا الخيالات، ولا نقوم بعمليّة تعويض، بل الأمر على العكس من ذلك؛ فهذه الكتب ملأى بالنصوص التي تؤكّد هذه الحقيقة. ولا يكاد أحدنا يجد كتاباً لا يتناول فكرة الإمام المهدي عليه السلام ويشرحها ويثبتها.

وهذا ما عليه المسلمون كافّة، ومن لا يعرف هذه الحقيقة أو ينكرها فهو لا يعرف كيف ينظر إلى التاريخ، بل ليس هذا عمله.

دليليّة التواتر على وجود الإمام المهدي عليه السلام

إننا الآن ندين بالإسلام ونؤمن برسالة نبيّنا صلى الله عليه وآله عن طريق التواتر،

---

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣، ٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤ وغيرها

ومعنى التواتر هو وجود جماعة في كل زمان يؤمن جانبهم من التواطؤ على الكذب، فيخبرون بشيء، ويكون إخبارهم هذا المتواتر حجّة ودليلاً على صدق القضيّة[1]. ومثال ذلك أنك تعيش هنا فيأتيك شخص يحدّثك عن مدينة اسمها «ديترويت»، ثم يأتيك ثانٍ فيحدّثك عنها بمثل ما حدّثك عنها الأوّل، ثم يأتي ثالث فيحدّثك عنها أيضاً بمثل ما حدّثك به سابقاه، فإنك حينئذٍ تصدّق بوجودها وإن كنت لم ترَها؛ لوجود التواتر هنا. فالتواتر إذن هو ما يكون من طبقة عن طبقة يتعذّر تواطؤهم على الكذب.

إذن فنحن إنما أخذنا علوم الإسلام بالتواتر، وكذلك أخذنا رواية الإمام المهدي عليه السلام بالتواتر أيضاً. وبالنتيجة فالإمام المهدي عليه السلام هو الذي يرث الأرض ليملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وليرفع فيها كلمة الله عز وجل، ولينشر بيننا القرآن الكريم غضاً طريّاً أي من غير تلاعب بمفاهيمه ولا عبث وتحريف بتفسيره؛ لأنه عليه السلام هو المنبع الذي يشرح علوم القرآن.

ونحن نقول له: سيدي يا صاحب العصر، إن أعناقنا إليك ممتدّة، وأبصارنا إليك شاخصة، يقول أحد الأدباء:

شخصنا إليك بأبصارنا ... شخوص الغريقِ لمرّ السفنْ

فالواقع نحن غرقى في بحر مظلم، وننتظر فيه من يخلصنا فنتوجّه إليه، لكن متى يأذن الله تعالى له؟ هذا ما لم تحدّده الروايات، نعم إنها تعطينا علائم على ظهوره لكن نحن نتوّاقون إلى رؤياه، ومنتظرون طلعته الرشيدة

---

(١) انظر اصطلاحات الأصول: ١٤٢.

وغرّته الحميدة. وهذا الانتظار لا يعني تعطيل حكم من أحكام اللّه، وأرجو ألّا يختلط الأمر عليكم، فنحن الآن نقول بأن الجهاد واجب سواء وجد الإمام بيننا أو لم يوجد، رأيناه أو لم نرَه، وأعمالنا في الدنيا كلّها نحن مكلّفون بها. ففكرة الإمام عليه السلام وغيبته لا تعيقاننا عن أداء واجبنا وعباداتنا، ولا تحولاننا إلى مجتمع مشلول أبداً.

وغاية ما في الأمر أننا نرنو الإمام عليه السلام ونتوق إليه؛ لأننا نريد منه أن يقيم العدل وأن يضع الأشياء في مواضعها، غير أن أمر خروجه لا يكون حتى يأذن الله. يقول أحدهم: رأيت في عالم الرؤيا شخصين، فسألت عنهما فقيل لي: هذا الإمام المهدي عليه السلام وهذا الذي إلى جانبه هو السيد حيدر الحلي. يقول: فسمعت الإمام عليه السلام يخاطب السيّد الحلي بقوله: يا سيد حيدر، كفاك عتباً؛ فلقد قصمت ظهري إذ تلحّ علي بالعتاب:

ماذا يهيجك إن صبر ... ت لوقعة الطف الفظيعة
أترى تجيء فجيعةً ... بأمضّ من تلك الفجيعة
حيث الحسينُ على الثرى ... خيل العدى طحنت ضلوعَهْ
قتلته آلُ أمية ... ظلماً إلى جنب الشريعة
ورضيعُه بدمِ الوري ... دِ مخضّبٌ فاطلب رضيعة
يا غيرةَ الله اهتفي ... بحميّةِ الدين المنيعة
وظُبا انتقامِك جردي ... لطلا ذوي البغي التليعة
ودعي جنودَ اللهِ تمـ ... ـلأ هذه الأرض الوسيعة[1]

فالإمام عليه السلام يقول له: أنت تلح عليّ بهذا الأمر، والحاحك يؤلمني، غير

(١) رياض المدح والرثاء: ٣٢.

أني لا أملك من أمري شيئاً، فأنا أنتظر فيه أمر الله تعالى. ولذا فإن السيد عليه السلام يخاطبه كلّ يوم بقوله:

فيما اعتذارُك للنهوضِ وفيكُمُ ... للضيمِ وَسمُ فوق كلِّ جبينِ

أيمينُكم فقدت قوائمَ بيضِها ... أم خيلُكم أضحت بغيرِ مُتونِ[1]

يقول المؤرّخون: إذا خرج الإمام المهدي عليه السلام يأتي أولاً إلى ضريح أبي عبد الله عليه السلام، فيقف عليه قليلاً ثم يجلس ويمدّ يديه، فيستخرج عبد الله الرضيع، ثم يعرضه على أصحابه، فيقول لهم: «ما ذنب هذا الطفل الرضيع، يقتل وهو على يدي أبيه؟».

أقول له: سيدي أنت رأيت الأمر بعد الواقعة، وبعد هذه المدّة الطويلة وتأثّرت كلّ هذا التأثر، فكيف سيكون الأمر لو أنك رأيته لحظتها، وجدّك الحسين يحمل رضيعه على يديه وهو يضطرب على عضديه ودماؤه تسيل؟ نعم رجع به الحسين عليه السلام إلى المخيّم ثم صاح: «رباب، خذي ولدك مذبوحاً». فتناولت رضيعها ورجعت به إلى الخيمة:

ولو تراه حاملاً طفله ... رأيت بدراً يحمل الفرقدا

مُخضّباً من فيض أوداجه ... ألبسه سهم الردى مجسدا[2]

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلّي: ١١١.

(٢) المجسد: الثوب الملامس للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

﴿٥٨﴾

فكرة الإمام المهدي عليه السلام عند المذاهب الإسلامية

إلى الحشر حتى يبعث اللّه قائماً يفرّج عنا الهمّ والكرباتِ[1]

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: قضية الإمام المهدي في الفكر الإسلامي

لعل من الأُمور المهمّة التي تمتدّ على مساحة واسعة من الفكر الإسلامي، وتشغل بال الكثير من الكتّاب المسلمين، والتي دار حولها نقاش طويل وحادّ هي قضية الإمام المهدي عليه السلام. وهي من القضايا التي اختلفت فيها الآراء وكثرت حولها التفسيرات وسبل الأخذ والرد.

محاور البحث

ويمكن تلخيص هذه القضية على ضوء محاور أربعة هي:

الأوّل: هل إنّ روايات المهدي عليه السلام مختصة بالشيعة فقط كما توحي به كتابات البعض، أم إنّها من مرويّات المسلمين كافّة؟

الثاني: هل إنّ الإمام المهدي عليه السلام موجود فعلاً حالياً بناءً على القول

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٤ / ٣٤، كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٣ - ٣٧٦، دلائل الإمامة: ١٨٢، إعلام الورى: ٢٣٠.

بوجوده، وصحة الفكرة حوله، أم إنه سيولد بعد في زمان خروجه؟

الثالث: على فرض وجوده، ما هي الجدوىٰ منه إذا كانت الأُمّة لا تستطيع أن تصل إليه وتتّصل به وتستفيد من علمه؟

الرابع: ما هو مردود فكرة الإمام المهدي عليه السلام؟ وهل هو مردود إيجابي يمكن أن ينتفع به الناس والمجتمع الإسلامي أم لا؟ وإذا كان المردود إيجابياً فما هو؟

سنحاول تلخيص النزاع في هذه المحاور؛ وهو نزاع مطوّل ذو شعب كثيرة، وقد تزامن مع أُخريات عصر الأئمّة عليهم السلام وبعد غيبة الإمام عليه السلام سيّما الغيبة الكبرىٰ. وكان هذا النزاع يمرّ بأدوار سجال تتراوح بين القوّة والضعف والشدّة والفتور، أي أنه يشتدّ في بعض العصور ويعنف ثم يأخذ صفة الاعتدال وهكذا.

لكن مع كل هذا يبقىٰ أصل الفكرة محل أخذ وردّ بين المسلمين.

المحور الأوّل: روايات المهدي في المدوّنات الإسلامية

إنّ الروايات المختصّة بالإمام المهدي عليه السلام والتي وصلتنا عبر التاريخ والكتب لم تكن عن طريق الشيعة أو الكتب الشيعية فقط، وإنما هي موجودة ومبثوثة في كتب المذاهب الإسلامية كافّة. وقد يستغرب البعض حينما يجدني أُقرّر أنّ روايات الإمام المهدي عليه السلام عند المذاهب الإسلامية هي أكثر منها عند الشيعة، ومن يظن أنّ الشيعة وحدهم من اختصّوا بهذا الموضوع واحتضنوه فهو لا يملك أدنى فكرة عن الموضوع ولا علم له به. ومن أراد أن يتحقّق من مصداقية هذا فبوسعه أن ينظر في كتب الحديث التي تناولت هذا الموضوع، وأقصد بها السنن والصحاح بأجمعها، فسيجد أنّها قد حفلت بروايات الإمام المهدي عليه السلام، مع

اختلاف لسان الروايات فيها ومن ذلك قول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «أبشروا بالمهدي فإنه يبعث على اختلاف من الناس شديد، وزلازل يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. ويرضى به ساكن السماء، وساكن الأرض، ويملأ الله به قلوب عباده سروراً»(١).

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «المهديّ من نسل فاطمة سيدة نساء هذه الأمة ـ طالت الأيام أو قصرت ـ يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»(٢).

وروايات أُخرىٰ مثل «المهديّ منّي»(٣). و«المهديّ منّا أهل البيت»(٤). وغيرها من الروايات الكثيرة ذات الصيغ المختلفة والأساليب المتكثّرة، وكلها تصبّ حول فكرة الإمام المهدي عليه السلام.

وبهذا نلاحظ أنّ كتب المذاهب الإسلامية مشحونة بروايات هذا الباب، والتأكيد على وجوده وتكفير منكره، يقول ابن حجر حين سئل عمّن ينكرون خروج المهديّ المنتظر عليه السلام: «فهؤلاء المنكرون للمهدي الموعود به آخر الزمان، وقد ورد في حديث عن أبي بكر الإسكافي أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من كذّب بالدجّال فقد كفر، ومن كذّب بالمهديّ فقد كفر»... ونملي عليك من الأحاديث المصرّحة بتكذيب هؤلاء وتضليلهم وتفسيقهم ما فيه مقنع وكفاية لمن تدبّره»(٥).

إنه يعتبر وجود الإمام المهدي عليه السلام ضرورة من ضرورات الدين لتواتر الروايات بذلك؛ بدليل أنه كفّر منكره؛ لأنّه يؤول إلى كونه منكراً لضرورة

---

(١) كمال الدين: ٢٢، شرح الأخبار ١: ١٢٣، مسند أحمد ٣: ٢٧، ٢٨، ٣٧، ٥٢، ٧٠، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩.
(٢) شرح الأخبار ٣: ٣٦٣.
(٣) مسند أحمد ٣: ٣١٠.
(٤) المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٦٥، عمدة القاري ١: ١١٣، تحفة الأحوذي ٦: ٤٠٣.
(٥) هوية التشيع (المحاضر): ١٨١ عن (الفتاوى الحديثية) لابن حجر.

من ضرورات الدين، كما قلنا. وهذا طبعاً تقرير ناشئ عن كثرة الأحاديث أو الروايات التي عالجت هذا الموضوع وأثبتته. وعليه فلا يمكن القول: إنّ الشيعة وحدهم هم من يقول بالإمام المهدي عليه السلام أو أنّ كتبهم فقط هي التي تنقل الروايات التي تختصّ به والتي تعالج هذه القضية كفكرة متبناة عندهم.

المحور الثاني: هل إنّه عليه السلام موجود بالفعل أم أنه سيولد فيما بعد؟

وهذا المحور بالذات سيتضمّن الكلام على المحور الثالث كما سيأتي، وهو محور الخلاف بين الإمامية وبين بقية المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ الذين يقولون بأننا نسلّم بأن اللّه عزّ وجلّ سيبعث الإمام المهدي عليه السلام في الأرض فيملؤها قسطاً وعدلاً، ونسلّم بصحّة الروايات الواردة في ذلك لكننا لا نسلّم بوجوده الآن فعلاً.

إشكالات أهل السنة على وجود المهدي عليه السلام وأسبابها

وهذا الاعتقاد عندهم ناشئ من أنه يتضمّن عدة إشكالات تعود للأسباب التالية:

الأوّل: أنّ في وجوده عليه السلام خرقاً للعمر الطبيعي للإنسان

فهم يقولون: إنّ هناك معدّلاً طبيعيّاً للأعمار، وعمر الإنسان الطبيعي يجب ألّا يتجاوز معدّلاته المعروفة والمألوفة، وهي سبعون أو ثمانون سنة. وهذا الإشكال يتضمّن أغلب الكلام على هذا المحور؛ لأنه إشكال مبتنٍ على أنّ المهدي عليه السلام هل هو موجود بالفعل أم لا؛ لأن وجوده بالفعل يستلزم خرق النواميس والعادات البشرية.

فإذا عاش الإنسان خارج هذا النطاق أو المعدّل فإنه يكون قد دخل

ضمن النطاق غير المعقول للأعمار؛ خصوصاً إذا كان الخروج عن المعدّل خروجاً هائلاً جدّاً؛ حيث إنّ عمر الإمام المهدي عليه السلام الآن قد تجاوز الألف سنة بكثير. وعليه فإنّ عمراً كهذا يكون خارجاً عن النظام الطبيعي المألوف بكل المعايير.

الثاني: عدم جدوى وجوده لعدم التمكن من الاتصال به

وهذا هو الإشكال الثاني أو السبب الثاني لعدم القول بوجوده حاليّاً؛ حيث إنّ الشيء الذي لا يمكن الاستفادة منه يكون وجوده كعدمه ـ أي عبثاً ـ وبما أننا لا نتمكن من الوصول إلى المهدي عليه السلام ولا نستطيع الاستفادة منه، والمفروض أن يكون الإمام على تماسّ مع الناس وأن يكون مصدر هداية. فإذن لا يمكن القول بوجوده فعلاً.

الثالث: أنّ الاعتقاد بوجوده إلغاء للتكاليف

وهذا الإشكال يمثل المحور الرابع من محاور بحثنا، وهو إشكال قائم على أن الاعتقاد بوجود المهدي عليه السلام كل هذا العمر الطويل والمدىٰ الواسع، ثم إنّه سيخرج ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً ـ أي أنه عليه السلام تناط به وحده مسؤولية تصحيح الأوضاع الشاذّة في الأرض، ومهمّة إقامة دولة العدل ـ معناه إلغاء التكاليف سيما وظيفتي الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا يعني شلّ حركة الأُمّة، لأنّها ستبقىٰ تنتظر الفرج على يديه.

الرابع: عدم صحة الاحتجاج بالغائب

وتقرير هذا الإشكال أنه كيف يصح القول بأنّ اللّه تعالى يحتجّ على العباد بإمام لا يرونه؟

مناقشة بعض هذه الإشكالات

وتكون الإجابة على هذه التساؤلات كالآتي، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الإجابة على الإشكال الثاني ستكون موضوع المحور الثالث، ومناقشة الإشكال الثالث ستكون موضوع المحور الرابع من محاور بحثنا هذا:

مناقشة الإشكال الأوّل

وهو الإشكال الذي يقوم على التساؤل: هل إنّ الإمام المهدي مولود فعلاً ويعيش بيننا، أم إنه سيولد في أوان خروجه؟ وزمان إيذان اللّه تعالى له بذلك؟

أدلة وجود الإمام المهدي عليه السلام

الدليل الأوّل: رواية أنّ الأرض لا تخلو من حجّة

والجواب أنه مولود فعلاً ويعيش بيننا، والأدلّة على هذا كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وآله: «لا تخلو الأرض من حجّة»[1].

والمقصود بـ«حجة» هنا هو من يمثّل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ لأننا لا نستطيع أن نجعل غير المعصوم حجّة فيما بيننا وبين اللّه تعالى[2]؛ إذ أنّ غير المعصوم تحتمل منه المعصية، وفي حال صدورها منه تسقط حجّيته، ولا يمكن اعتبارها فيه حينئذٍ. ولذلك فنحن الآن لا نعتبر قول

---

(١) انظر: الأُصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢ / ٤٥، ٢٣٤ / ١٩٣، ٢٣٦ / ٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨ / ١، ٤٨٩ / ٤، ٥٠٥ ـ ٥٠٦ / ٤، ٩ ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧ / ١٧، ٥٠٩ / ٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

(٢) قال الإمام عليه السلام: «وان أئمتكم وفودكم إلى الله، فانظروا من توفدون في دينكم». قرب الأسناد: ٧٧، كنز الفوائد: ١٥٢.

الفقيه حجة لأنّه قول للفقيه، بل لأنّه ينقل النصّ الشرعي الذي هو قول اللّه تعالى أو النبي أو المعصوم عليه السلام أو يستنبط الحكم منه؛ إذ أنّ الفقيه عندنا هو قناة لنقل الحكم من منبعه (المشرّع) إلى مصبّه (المتلقّي أو المكلّف). إذن إنّما تتمّ الحجّة بوجود المعصوم.

الثاني: رواية من «لم يعرف إمام زمانه»

ومن الأدلّة على وجود المهدي المنتظر عليه السلام حالياً هو قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[١] وهي رواية يرويها جمهور المسلمين[٢]، فإذا كان إمام الزمان غير موجود، فكيف يمكن معرفته؟ وعليه فلابدّ من وجوده في كل عصر وزمان كي تمكن معرفته والإيمان به، ليخرج المسلم من ربقة ميتة الجاهلية.

ثم إنّ مسألة أن يعيش الإنسان كل هذه الفترة الطويلة ضمن النطاق الطبيعي هو أمر غير ممكن بأي حال من الأحوال ولا يمكن أن يكون؛ لأنّه خلاف العادة وخلاف الطبيعة البشريّة. ونحن لا نعدو هذه الحقيقة ولا نقول بخلافها لكننا في المقابل نتكلم ضمن النطاق الإعجازي، وحينئذٍ فلا مشكلة، وهذا له نظائر كالنبي نوح والخضر والنبي عيسى عليهم السلام.

وهذا بإجماع المسلمين، فكلّهم يقولون ببقاء هذين الأخيرين عليهما السلام حيين[٣]. فالكلام إذا كان في حيّز المعجزة فلا إشكال حينئذٍ فيما يقع

---

(١) الإمامة والتبصرة (ابن بابويه): ١٥٢، كمال الدين: ٤٠٩ / ٩.

(٢) شرح المقاصد ٢: ٢٧٥، وذكر الشيخ الأميني في الغدير ١٠: ٣٦٠ أن الشيخ عليّاً القاري صاحب (المرقاة) حكاه في خاتمة الجواهر المضية ٢: ٥٠٩ عن (صحيح مسلم).

(٣) وقد تمكّن العلماء عبر الهندسة الوراثيّة من إطالة عمر الفار، فإذا كان الإنسان يقدر على

ذلك الكلام عليه. وهناك الكثير من المعجزات التي وصلت وخرقت العادة، وهي موجودة في كتب جميع المسلمين؛ كقضية النطق التي هي من مختصات الإنسان وسماته، لكن القرآن الكريم يحدّثنا عن الشجرة التي كانت تكلّم النبي موسى عليه السلام، والروايات تحدّثنا عن حنين الجذع لمجلس رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته. ولنا أن نسأل: لماذا تعتبر حنين الجذع أمراً معجزاً وقابلاً للوقوع ولا تعتبر إطالة عمر الإنسان أمراً معجزاً قابلاً للوقوع؟

إنّ الذي يدعونا إلى القول بهذا المعجز هو كثرة الروايات التي تلزمنا به وتأخذ برقابنا للاعتقاد به والتصديق بوقوعه، فالروايات كثيرة حول الإمام المهدي عليه السلام، وهي تثبت وجوده بما لا يقبل التشكيك إلّا عناداً. فنحن هنا ملزمون بأن نوجه هذه القضية ـ لكثرة الروايات الملزمة ـ إلى أنّ وجود الإمام عليه السلام هو أمر إعجازي. فكلّ عمر خلاف العمر الطبيعي لا بدّ أن يكون معجزة، وليس له إلّا هذا التفسير. والمسلم مدعوّ إلى الإيمان بالمعجزات كلّها أمّا أن يؤمن ببعضها ويكفر ببعض فهذا غير مقبول وغير موضوعي؛ لأنّ الموضوعية تحتّم الإيمان بالأمثال على حد سواء.

مناقشة الإشكال الثاني (المحور الثالث)

وهذا الإشكال كما قلنا هو المحور الثالث من محاور بحثنا، وهو: إذا كان موجوداً فلماذا لا يرىٰ؟ وما الفائدة حينئذٍ من وجوده. و الجواب على هذين التساؤلين يكون في مقامين:

هذا، فكيف بالله تعالىٰ؟

الأوّل: أنّ وجوده عليه السلام لطف بالمكلّف

فنقول: إن لهذه الحالات نظائر[١]، ويقول العلماء: إنّ وجود الإمام عليه السلام هو لطف إلهي للمكلّفين وبهم، بمعنى أنّ كل المسلمين يعتقدون الآن بوجود الجنة والنار، والقرآن الكريم يصرّح بهذا في موارد كثيرة[٢] منها ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣]، وأُعدت بمعنى هيّئت، أي أنّها موجودة فعلاً، مع أننا لا يمكن لأحد منا أن يصل إلى الجنة والنار، فهل معنى هذا أنّ وجودهما عبث؟ إذ أننا الآن في دار تكليف ولسنا في دار جزاء، وإذا أساء أحد المكلّفين أو أحسن فهو لا يُدخل النار أو الجنّة الآن، بل إنّه سيحشر يوم القيامة، ثم يجازىٰ حينها على عمله.

إذن فما فائدة الجنة والنار الآن؟ ولماذا هما موجودتان بالفعل مع أننا لا نستطيع أن نصل إليهما ولا أن نحشر فيهما الآن، واللّه تعالى منزّه عن العبث؟ يجيب علماء المسلمين على هذين التساؤلين وغيرهما بأنّ هناك لطفاً من اللّه تعالى بعباده حيث أوجدهما الآن وخلقهما مع أننا لا نتمكن من الوصول إليهما. فهو لطف من اللّه تعالى للمكلف وبه؛ إذ أن المكلّف إذا عرف أن هناك ناراً وجنة وأنهما أُعدّتا له؛ إن أحسن فللجنّة لينعّم

---

(١) أمّا النبي نوح عليه السلام فدعوته لقومه قبل الطوفان فقط تسعمئة وخمسون سنة كما نص القرآن على ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ العنكبوت: ١٤. هذا عدا عمره الشريف قبل الدعوة وبعد الطوفان.

(٢) فأغلب الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام كانت لهم غيبات عن أقوامهم، ومن أراد الاطلاع أكثر فليرجع إلى كتاب (إكمال الدين وإتمام النعمة) للشيخ الصدوق رحمه الله إذ أنه ذكر فيه كل من كانت له غيبة ثابتة بالطرق المعتبرة من الأنبياء وأوصيائهم.

(٣) آل عمران: ١٣٣، وكذا ما ثبت من حديث المعراج، ورؤيته صلى الله عليه وآله النار وأهلها.

فيها، وإن أساء فللنار ليعاقب فيها، فإن هذا سيكون له تأثير على سلوكه؛ حيث إنّه حينها سيخشىٰ النار ويحاول تجنّبها ويسعىٰ لذلك، وسيطمع في الجنة ويحاول الوصول إليها ويسعى لذلك لمرحلة ما بعد الموت. وبهذا يكون وجودهما لطفاً بالمكلفين.

وفي قضية الإمام المهدي عليه السلام يكون الجواب نفسه؛ حيث إنّ وجود الإمام فيه لطف بالمكلف وإن لم يكن هذا المكلّف يراه.

الثاني: أنه عليه السلام يُرىٰ ويستفاد منه

إنّ هذا التقريب المارّ هو تقريب بناءً على القول بأنّ الإمام عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ، وتسليماً لمن يقول بذلك، أما وجه الحقّ فمن قال: إنّه عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ أو يُتّصل به؟ إنّ الحقّ أنّه عليه السلام يمكن رؤيته لكن لا يمكن معرفته. وهذا له نظائر عندنا أيضاً، فالمسلمون بأجمعهم يرَون أن النبي عيسى عليه السلام رفع إلى السماء حياً، وأن الخضر حيّ كذلك، وهذا بإجماع منهم، وأن الخضر يرىٰ من قبل فئة خاصة، أي أنه حي يعيش معنا لكن لا يمكن معرفته، وكذلك الإمام المهدي عليه السلام، فإنّه يمكن أن يلقي بين العلماء رأيه في مسألة ما يكون اختلافهم فيها كبيراً، ويمكن أن يرشدهم إلى الجواب الصحيح دون أن يعرفوه. وهذا ما عليه أغلب جمهور علماء الشيعة الإمامية[1].

---

(١) أي أنّ هناك من يقول منهم بعدم الرؤية زمن الغيبة الكبرىٰ ويروون في ذلك روايات منها ما في أنه قد خرج التوقيع الشريف إلى أبي الحسن السمري، وفيه: «قد وقعت الغيبة التامّة، فلا ظهور إلّا بعد إذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جوراً. وسيأتي من شيعتي من يدّعي المشاهدة، ألا فمن ادّعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة، فهو كذّاب مفترٍ. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». كمال الدين وتمام النعمة: ٥١٦، الغيبة (الشيخ الطوسي): ٣٩٥، الاحتجاج ٢: ٢٩٧، بحار

مناقشة الإشكال الثالث (المحور الرابع)

وهذا الإشكال كما مرّ هو عينه المحور الرابع من محاور هذا البحث ـ لتداخل موضوعات البحث ـ وهو إشكال قائم على التساؤل حول المردود الإيجابي لفكرة المهدي عليه السلام، وأنّها فكرة تقوم على إلغاء التكاليف وشلّ حركة الأُمّة. والجواب على هذا الإشكال يكون في مقامين:

الأوّل: أنّ روايات المهدي عليه السلام لا تلغي التكاليف

فهذا الكلام غير واقعي وغير صحيح، وهو مرفوض على الإطلاق؛ لأنّه في الوقت الذي جاءت الروايات المثبتة لفكرة الإمام المهدي عليه السلام والمبشّرة به جاءت روايات في مقابلها لم تأمر بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنها جاءت تحثّ على القيام بهذه الوظيفة الشريفة

الأنوار ٥٢: ١٥١ / ١.

أمّا القائلون بإمكان الرؤية فهم كثر، ويروون في ذلك روايات كثيرة أيضاً منها رؤية العلّامة رحمه الله له عليه السلام حيث ساعده على نسخ كتاب رأس السنّة آنذاك، وكان قد كتب في الرد على الإمامية كتاباً، فاحتال العلّامة في تحصيله فلما حصل عليه أخذه إلى البيت ليستنسخه على قدر إمكانه لكن النوم غلبه فإذا بالحجّة عليه السلام يدخل عليه يقول له: «اجعل الأمر في هذه الكتابة إلي ونم». ففعل ولما استيقظ رأى نسخة الكتاب كاملة بكرامة الحجّة عليه السلام، وفي آخره: «كتبه (م ح م د) بن الحسن العسكري صاحب الزمان». مجالس المؤمنين ١: ٥٧٣، النجم الثاقب: ٢٩٤ ـ ٢٩٥، جنّة المأوى ٢: ٢٥٢، قصص العلماء: ٣٥٨.

وهناك وروايات أُخرىٰ غيرها، منها رواية وقوع العصا من يد العلّامة ومناولة الإمام عليه السلام له إيّاها، ثم قوله له جواباً على سؤال العلّامة: «كيف لا يمكن رؤية صاحب الزمان ويده في يدك؟»، قصص العلماء: ٣٥٨.

ومن أراد أن يطلع أكثر على رؤيته عليه السلام في زمن الغيبة الكبرىٰ فليرجع في هذا المجال إلى بحار الأنوار ٥٢: ١٥٩ ـ ١٧٨.

السامية، وجاءت روايات تحث على فريضة الجهاد المقدّسة. والمسلمون بصورة عامة يرون الآن أنّ فريضة الجهاد قائمة والأمر بها نافذ؛ فإذا توفّرت شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو شروط الجهاد وجبا، وأصبح لزاماً على المسلمين أن يقوموا بهاتين الفريضتين الشريفتين سيما فريضة الجهاد المقدسة.

إذن فكرة الإمام المهدي عليه السلام لا تلغي التكاليف ولا تشلّ حركة الأُمة؛ فهي لا تنهىٰ عن بناء مصنع أو استصلاح أرض وزراعتها، ولا تدعو إلى الإحجام عن مقاومة العدو حينما يعتدي على أرض المسلمين، بل العكس هو الحاصل، وهو بناء على أوامر القرآن وتوجيهاته وإرشاداته، فهو يأمر باستثمار الطاقات البشرية وطاقات الأرض والجوّ، ويأمر بالدفاع عن الوطن والأرض، ويأمر بأداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكل من يشكّ في هذا، فليرجع إلى كتب الإمامية، وليـنظر بابي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد فيها، وليرَ هل عطّلت أحكامهما؟ وهل يقول فقهاؤنا بتعطيلهما؟ طبعاً لا؛ فهم لا يقولون بهذا، وحكمهما لا زال قائماً عندنا[1].

الثاني: أنّ الحقّ المراد في الروايات هو حق أهل البيت عليهم السلام

ثم هل إنّ روايات خروج صاحب الزمان عليه السلام تأمرنا بانتظاره حتىٰ يأخذ لنا بحقّهم وحقّنا ممّن ظلمهم واغتصبهم حقوقهم على مدىٰ إمامتهم عليهم السلام وظلمنا بحيث إننا لا نتحرّك طلباً لذلك الحق؟ طبعاً لا، فالقرآن الكريم

(١) للاستزادة انظر أجوبة مسائل جار الله: ٦١ ـ ٦٦ / المسألة: ٧. والكتاب إجابة لمسائل أثارها التركستاني موسى جار الله.

يقول: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

إذن هذه الدعوى ـ دعوى أن فكرة الإمام المهدي (عجّل الله فرجه الشريف) تشلّ الحركة عند الأُمّة وتركنها إلى الجلوس والتقاعس ـ هي مغالطة؛ لأنها غير موجودة عندنا أبداً، والإشكال عليها إشكال على شيء معدوم؛ فيكون إشكالاً باطلاً بالضرورة.

المبحث الثاني: المردود الإيجابي لفكرة المهدي عليه السلام

وهو مردود يقوم على أساس أنّ فكرة الإمام المهدي عليه السلام هي فكرة وجود العدل، بمعنى أنّ الله تعالىٰ يريد أن يشدّ العباد إلى هذه الفكرة ـ فكرة العدل ـ ويشعرهم أنّ الظلم أمر غير مرغوب به في الأرض، وأن كل ظلم يحدث فلابد من إيجاد المقوّمات الأساسية لتعديله وتقويم مرتكبه.

والواقع أن الاعتراف بفكرة وجود المهدي عليه السلام هو أمر يشدّنا إلى فكرة العدل ووجوب تحقيقه في الأرض بين الناس، والوقوف بوجه الظلم، وكذلك يشدّنا إلى فكرة الاستقامة. فالوقوف بوجه الظلم أمر محبّذ تدعو إليه الشرائع والعقول المستنيرة. ومعنى «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً»: أنّ الأرض من غير عدل لا تستقيم، وأنّ المتعيّن على المسلم دفع الظلم ومحاربته والوقوف بوجهه.

هذا فضلاً عن أنه ليس هناك أي مردود سلبي أو أي لون من ألوان السلبية لفكرة الإمام المهدي عليه السلام، خصوصاً بعد أن وصلت الأحاديث حدّ التواتر، كما أنّها لا تتعارض مع طاقات الأمة

---

(١) البقرة: ١٩٤.

هذه فكرة مجملة عن الإمام المهدي عليه السلام وددت إيرادها؛ لأننا في آخر جمعة من شهر رمضان المبارك، ونحن في ظلّ صاحب العصر والزمان عليه السلام ورعايته وعنايته وحياطته (عجّل اللّه تعالىٰ فرجه، وسهّل مخرجه، وفرّج عنا به، ونسأله تعالى أن يسدّدنا بالقول والعمل).

المبحث الثالث: أسئلة وأجوبة

هذه جملة من الأسئلة التي طرحها بعض الحضور سنجيب على ما يسمح به الوقت إن شاء اللّه تعالىٰ كالتالي[١]:

الأسئلة الكلامية

السؤال الأوّل: رؤية الإمام المهدي عليه السلام

يقول السؤال: هل هناك من رأى الإمام المهدي عليه السلام شخصياً؟

الجواب: في الحقيقة أنني لا أستطيع أن أقول: إنّ هناك من رأىٰ الإمام المهدي عليه السلام؛ لأنني لا أستطيع أن أبتّ بهذا الأمر دون دليل واقعي، وهناك قصص حول هذا الأمر، لكن هل هي وهم أو حقيقة، اللّه أعلم بها[٢].

السؤال الثاني: رواية «اسم أبيه اسم أبي»

يقول السؤال: هناك رواية تقول: «اسمه اسمي وكنيته كنيتي واسم أبيه اسم أبي»[٣]. فما مدىٰ صحة هذه الرواية؟

الجواب: إنّ هذه الرواية مفتعلة؛ لأنّ الحديث الشريف يقول: «اسمه اسمي»، أمّا الزيادة هذه فهي مدّعاة كما يقول العلماء الذين نقلوا هذه

---

(١) لقد قمنا بتصنيفها موضوعياً كما سيرى القارئ الكريم، فهي ليست وفق ترتيب طرحها.

(٢) وقد مرّ جوابه في المقام الثاني من مناقشة الإشكال الثاني.

(٣) سنن أبي داود ٢: ٣٠٩، تحفة الأحوذي ٦: ٣٩٣، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

الرواية.

السؤال الثالث: حول البداء

يقول السؤال: ما هو البداء؟ وما المقصود منه؟

الجواب: الواقع أنني لا أستطيع أن أجيب عن موضوع البداء أو أشرحه في هذه العجالة؛ لأنّه بحث فلسفي دقيق جداً، ويحتاج إلى دراسة ولا أحبّ أن أشغل أذهانكم ببحوث لا يسألكم الله تعالى عنها يوم القيامة. لكن من يرد الاطّلاع على هذا الموضوع فليرجع إلى الكتب والبحوث المؤلّفة، ككتاب (البداء)، وبحث (البداء) من تفسير (البيان) للسيد الخوئي، ففيه بحث مفصّل وافٍ حول هذا.

السؤال الرابع: الكفر بالله تعالى في مرحلة الاستدلال على وجوده

يقول السؤال: هل إن الاستدلال على وجود الله تعالىٰ والوصول إلى هذا الاستدلال يبرّر الكفر به تعالىٰ ثم الرجوع إلى الإيمان به؟

الجواب: أنّ هذا الأمر لا بأس به ولا مانع منه إذا كان ناتجاً عن حالة قهرية تورّث الشكّ عند الإنسان في مرحلة ما من مراحل الاستدلال والبحث عن الحقيقة. وهذا مما لا إشكال فيه؛ سيما إذا عرفنا غالباً أن الإيمان المتأتي بعد الشكّ أعمق من الإيمان الفطري؛ فهناك إيمان عشوائي فطري وهناك إيمان قائم على أساس الدليل الصحيح والبحث المرتكز إلى الأساليب العلمية والمنطقية والبراهين العقلية. وهذا الإيمان ـ الحاصل بعد الشك ـ لا شك أن له قيمته، لكن ليس معنى هذا أن ندفع بالإنسان إلى التشكيك بوجود الله تعالىٰ؛ لأن وجوده تعالىٰ ظاهر للعيان، فأبسط الموجودات لا يمكن أن توجد من غير خالق، فكيف بهذا النظام الدقيق

المعقّد؛ سواء في الذرّة ومحتوياتها، أو في المجرّة ونجومها وكواكبها.

فهذا الكون الهائل والنظام العظيم بما يحويه من غرائب وعجائب من غير المعقول أن يوجد لمحض الصدفة أو أنّه موجود بنفسه من غير أن يكون له خالق عظيم قادر مدبّر. ولو تدرّجنا نزولاً حتى نصل إلى أبسط غدّة في جسم الإنسان لوجدنا فيها نظاماً خارقاً وتعقيداً تركيبيّاً ووظيفيّاً لا يمكن تجاوزه لما فيه من دلالة واضحة على وجود قوّة خالقة له أو منظمة ومدّبرة لوظيفتها وتركيبها. فالحكمة التي تلاحظ في مثل هذه الأجزاء الدقيقة كافية لأن تضع الإنسان في موضع الإقرار بوجود الخالق العظيم. فوجوده تعالىٰ من أظهر الأُمور.

أسئلة في تفسير القرآن الكريم

السؤال الأوّل: تزاحم الجنة والنار

يقول السؤال: هناك آية في القرآن الكريم تقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] فأين النار إذن؟

الجواب: إنّ المخاطبين بهذه الآية ـ وبالقرآن الكريم عامّة ـ هم أهل الكرة الأرضية وسكانها، فما هي السماوات المقصودة؟ وماهي بالنسبة لسكان الأرض؟ هل هي الأفلاك أم أنها كواكب المجموعة الشمسية؟ إن المجموعة الشمسية هي واحدة من اثنين وثلاثين مليار مجموعة كوكبية، أي أنّ مجموعتنا الشمسية هي ذرّة تائهة في الفضاء الواسع الرحب والمجهول، وهي لا تشكل في الكون الشاسع شيئاً يذكر، إذ أنّ الكون في اتساع مستمرّ دون توقّف[2]. ووفق نظرية آينشتاين فإن

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

(٢) هذا بناء على نظرية الانفجار الكبير (Big Bang) في تفسير نشوء الكون وولادته. حيث

صاروخاً يسير بسرعة الضوء، وهي (١٨٦) ألف ميل في الثانية ـ أي ما يعادل (٣٠٠,٠٠٠) كم تقريباً ـ إذا سار عشرين مليار سنة فسوف لن يصل إلى حافّة الكون[١]؛ لأن الكون حينئذٍ يكون قد تمدّد بمقدار الضعف من حجمه الحالي.

وليعلم بأن أبعد نجم اكتشف يبعد عنا عشرة مليارات سنة ضوئية. وإذا كانت سرعة الضوء (١٨٦) ألف ميل في الثانية فكم هي سرعته في اليوم والشهر والسنة؟ وكم هي سرعته في عشرة مليارات سنة؟

فالمراد من الآية هو عرض مجموعتنا الشمسية، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ مجموعتنا الشمسية هذه لا قيمة لها أمام هذا الكون الهائل العظيم، وبذلك يبقىٰ متسع كبير جدّاً في الكون للنار على ضوء ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

السؤال الثاني: الآثار الناجمة عن يوم القيامة؟

يقول السؤال: قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٢]، يصوّر لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، فما هي الآثار الناجمة عن يوم القيامة؟

الجواب: في الحقيقة أنا لا أعرف الآثار الناجمة عن يوم القيامة؛ لأنّ هذه الأُمور وأمثالها لا تعرف حتى ترى عياناً على أرض الواقع، لكن

إنّ مجرّاته عامّة واقعة تحت قوة الطرد التي خلفتها عملية الانفجار الكبير هذه.

(١) باعتبار أن العلماء يقدّرون أن حافّة الكون تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية بناء على الإشارات الغامضة المسمّاة «خلفيّة الأشعّة الكونيّة». والتي تلقتها مراصدهم.

(٢) الحجّ: ١ ـ ٢.

تبقى الصورة التي يرسمها القرآن الكريم مرعبة جداً، وهو يريد أن يبين لنا أنّ درجة الرعب التي يصل إليها الموقف هناك بين يدي اللّه عزّ وجلّ تصل إلى حدّ أنّ المرأة المرضع تذهل عن رضيعها وتنساه على الرغم من شدّة تعلّقها به وحبها له وتضحيتها بنفسها من أجله، وكذلك تلد الحامل دون أن تدري أو تعي.

السؤال الثالث: معرفة الملائكة بما سيفعله آدم عليه السلام

يقول السؤال: كيف قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]، مع أنهم لا يعلمون الغيب؟

الجواب: أنّ اللّه تعالى أعلم الملائكة أنّ هؤلاء الذين سيخلقهم وسيهبطهم إلى الأرض هم بشر غير معصومين، وغير المعصوم تجوز عليه المعصية وارتكاب المآثم. وعليه فيكون إشكال الملائكة قائماً على أنهم معصومون لا يفعلون المعصية ولا يرتكبون الإثم، لأن لديهم ما يمنعهم عن فعل ذلك، إضافة إلى أنهم لا غريزة عندهم ولا جسد، وأن البشر عندهم الغريزة والجسد ومن الممكن أن يرتكبوا المعصية، ويكون خطابهم له تعالى مبتنياً على هذا التساؤل: لماذا إذن تخلق في الأرض من يرتكب الآثام ويكسب الذنوب ويجترح السيئات، ونحن أولى بها؟ فأجابهم اللّه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

فهؤلاء فيهم من هو بمستوى أعلى من مستويات الملائكة؛ لأنّ هؤلاء الذي يصلون إلى هذا المستوى إنما يصلون بالتغلّب على عواطفهم وغرائزهم بعقولهم، في حين أنّ الملائكة ليس لديهم عواطف ولا

---

(١) البقرة: ٣٠.
(٢) البقرة: ٣٠.

غرائز؛ ولذا فإنهم لا يعصون، كما مرّ في أوّل الجواب. أما من يملك العواطف والغرائز ويملك كذلك العقل ثم غلبت غرائزه على عقله فهو أتعس من الحيوان[١]؛ لأن الحيوان ليس عنده سوى الغريزة. فالله تعالى يبين لهم بأنه أعلم منهم، إضافة إلى أنه لابدّ من إعمار الأرض.

السؤال الرابع: قتل أسرى المشركين

يقول السؤال: ما المقصود بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢]؟

الجواب: أنّ هذه الآية الكريمة نزلت في واقعة بدر بعد أن جيء بأسرى المشركين إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث إنّه صلى الله عليه وآله استشار أصحابه في قتلهم، أو الإبقاء عليهم ومفاداتهم. فتنازع الصحابة فيما بينهم؛ فقال بعض: نحن محتاجون إلى المال لشراء السلاح والرواحل والطعام، ولا ينفعنا قتل هؤلاء إن ضربنا أعناقهم، فلنأخذ منهم الفداء. وقال البعض الآخر: الأولى أن نقتلهم؛ لأننا إن فاديناهم وأطلقنا سراحهم رجعوا إلى تأجيج نار الحرب ضدّنا.

فنزلت الآية الكريمة ترشد النبي الكريم صلى الله عليه وآله إلى قتلهم؛ لأنهم يشكّلون خطراً على الإسلام والمسلمين، وتجب إزاحتهم عن طريقهم كي ينتشر الإسلام في كل مكان.

السؤال الخامس: معنى الليل

ما المقصود بالليل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ الفرقان: ٤٤، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم». علل الشرائع ١: ٤ ـ ٥ / ١.

(٢) الأنفال: ٦٧.

﴿تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1]؟

الجواب: الليل هو نهاية النهار وبداية ذهاب الحمرة المشرقية؛ لأنه يبتدئ بغروب الشمس كما أن النهار يبتدئ بطلوعها. فمتى تغرب الشمس، يهلّ الليل لغة، وهناك عند الفقهاء والأُصوليّين ما يسمى بمفهوم الغاية والمغيّا، والسؤال الذي يطرح في المقام وجوابه الذي هو محل الخلاف فيه هو: هل إنّ الغاية داخلة في المغيّا، أم إنّها غير داخلة؟ فحينما نقول لأحد: اذهب إلى باب الحسينية، فهل معنى هذا أن الباب داخل في الأمر فيجب إدخاله في امتثاله، أم أنه غير داخل فيه فلا يجب إدخاله في الامتثال؟ أي هل يجب على من أمرته أن يتجاوز الباب، أم يقع الامتثال منه حيث يقف عنده؟

فهذا موضع خلاف بين الفقهاء، فمن يقل بأن الغاية داخلة في المغيّا يرَ أنه لابدّ من دخول الليل لامتثال أمر اللّه في صحة الصوم، ومن يقل بأنها غير داخلة فيه يرَ أنه يجوز الإفطار بمجرّد غياب الشمس. وهذا هو مبنى الاختلاف بين الفقهاء.

الأسئلة التربوية والفكرية والثقافية

السؤال الأوّل: اختلاف الألسنة ولغة آدم عليه السلام

يقول السؤال: يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[2]، فمتى بدأت عمليّة اختلاف الألسنة؟ وبأي لغة كان آدم عليه السلام يتكلّم؟

---

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) الروم: ٢٢.

الجواب: لا أعلم ما هي اللغة التي كان آدم عليه السلام يتكلّم بها، لكن حتماً كانت له لغته الخاصّة. أمّا الشق الأوّل من السؤال، فهناك نظريتان في تفسير بدء اختلاف الألسنة واللغات:

الأولى: النظرية التوقيفية

وهي النظرية القائلة بأنّ اللّه تعالى علم آدم عليه السلام الأسماء كلها، ثم علم آدم عليه السلام كل أمّة لغتها.

الثانية: العلمية

وهي النظرية القائلة بأن اللغات تنشأ عند الأُمم بالمواضعات، حيث تقوم الأُمم بوضع أسماء للأشياء التي تتعامل معها أو بها، فتسميها بمسميات تبين المراد منها، وتحقّق الإشارة إليها.

السؤال الثاني: كيف يكسب الإنسان صديقاً؟

يقول السؤال: ما هي الطريقة الصحيحة لكسب الأصدقاء؟

الجواب: لكي يحقق الإنسان ذلك فإنّ عليه أن يكون ذا نفس كريمة تحبّ الخير للناس، ولا تترفّع عن خدمتهم وإبداء الإنسانية مهما كانت النتائج، وكذلك تدفعه للمساهمة معهم والاشتراك في أفعال البرّ والخير والإحسان. وأفضل طريقة لكسب الأصدقاء هي الصدق معهم وخدمتهم والتفاني من أجلهم والتخلّي عن الأنانية إزاءهم والتحلّي بروح خالية من الحقد والتعقيد، والتمتّع بخلق عالٍ يشدّهم إلى صاحبه. وهذه هي الوسيلة المثلى والطريقة الفضلى للاتّصال بالناس والاختلاط بهم.

السؤال الثالث: العدل بين الأولاد

يقول السؤال: نعلم أن الإسلام يأمر الآباء بعدم التفرقة بين الأبناء في

الغطاء، فهل ينطبق هذا الأمر على البنات أيضاً؟

الجواب: هذا مما لا شكّ فيه في حال حياة الأب؛ حيث إنّه ملزم شرعاً بألا يفرّق بين الذكور والإناث، أما بعد وفاته فلابدّ من العمل بقانون الإسلام في عملية توزيع الميراث؛ إذ أنّ هناك تفرقة بين الذكر والأُنثى يفرضها الهيكل الاقتصادي الإسلامي الذي يعفي المرأة من التكاليف المعيشية ويكفل لها حياتها المعيشية في ظل الزوج، في حين أنه ينيط ذلك بالرجل فيلزمه بالإنفاق عليها وتوفير الطعام والشراب واللباس والمسكن لها.

أمّا في حال الحياة فالأمر مختلف كما قلنا، وهو فرض مبدأ التساوي بين الولد الذكر والبنت، بل إن هناك روايات تقول بضرورة تفضيلهن في الهدية والعطاء وتقديمهن فيهما، يقول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «**من دخل السوق فاشترى تحفة إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور**»[1].

وهذا لكي يردّ الاعتبار للمرأة، ويعطيها شيئاً من الثقة بالنفس والقيمة، ويسدّ عندها الشعور بالنقص الذي يعتريها جرّاء معاملة المجتمع لها.. المجتمع الذي لا زال حتى الآن يعاملها معاملة غير كريمة. فالإسلام يحرص على ألّا يفرق بين الجنسين في كل خطاباته فخطاب ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[2] عام يشمل الذكور والإناث.

---

(١) ثواب الأعمال: ٢٠١.

(٢) البقرة: ١٠٤، ١٥٣، ١٧٢، ١٧٨، وغيرها كثير.

السؤال الرابع: فضل قراءة القرآن الكريم وأمر ختمه

يقول السؤال: ما هو فضل قراءة القرآن الكريم خصوصاً في الشهر الكريم؟ وهل يشترط ختمه في ثلاثين يوماً، أم يجوز في أكثر من ذلك؟

الجواب: حول الشق الأوّل نقول: إنّ فضل قراءة القرآن العظيم فضل كبير سيّما في شهر رمضان المبارك، فهو فضل عظيم جداً، وبه روايات كثيرة تنصّ على أنّ اللّه تعالى يضاعف ثواب قراءته فيه. فالقرآن هو نور الوجه[1]، وهو قربان إلى اللّه؛ لأنّه خطاب اللّه لعباده.

وحول الشق الثاني نقول: ليس هناك شرط من هذا القبيل، فالإنسان يستطيع أن يقرأ ما يتيسّر له، لكن كلّما كانت قراءته بتدبّر كان أفضل[2].

السؤال الخامس: تركيز مفهوم التوحيد لدى المسلم

يقول السؤال: كيف نركز مفهوم التوحيد لدى الإنسان المسلم الرسالي؟

الجواب: أن مفهوم التوحيد هو مفهوم فلسفي، بمعنى أنك حينما تريد أن تستدلّ على أنّ اللّه تعالى واحد فإنّك تحتاج إلى إيجاد الأدلّة في ذلك، والأدلّة هذه تحتاج إلى فهم فلسفي ومنطقي وكلامي خاص لهضمها وإمكانية تطبيقها، وكذلك فهم مجموعة علوم أُخرى. ولذا فالشخص الذي يريد أن يعرف كيف يردّ على النافين لوجود اللّه تعالى، وكيف يثبت وجوده وكيف يناقش في هذه الأُمور مدعّو إلى فهم هذه العلوم سيّما علم الكلام.

---

(١) صحيح ابن حبّان ٢: ٩٨.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر». الكافي ١: ٣٦ / ٣.

السؤال السادس: خلق الرغبة في النفس للقراءة

يقول السؤال: كيف نبعد عنا حالة الملل من قراءة الكتب؟

الجواب: في الواقع إن هذا هو داء العصر، فالوسائل التكنولوجية والحضارية قضت على الكتاب وعلى قارئه؛ فأجهزة التلفزيون والراديو والأجهزة الأُخرىٰ جعلت الإنسان يلتجئ التجاءً كلياً إليها، والانصراف إلى الاستمتاع عبرها، بل وحتى تحصيل المعلومة من غير تعب، وينصرف عن القراءة. وهذا بلا شك داء ونقص وضحالة في الشخصية يجب التغلب عليه بإكراه النفس على القراءة والتمرّن عليها حتىٰ تصبح بعد ذلك عادة عند المطالع أو القارئ.

السؤال السابع: اختلاف المسلمين في تحديد يوم العيد

يقول السؤال: نرى اختلافاً في تحديد يوم العيد بين السنة والشيعة[1] كل عام تقريباً، فما هي حقيقة هذا الاختلاف؟ وما دوافعه؟

الجواب: واللّه يا سيّدي لا أستطيع أن أتصوّر مسلماً يؤمن باللّه تعالى وبرسوله الكريم وبكتابه العزيز يرىٰ الهلال ولا يصوم أو يرىٰ الهلال ولا يفطر. فمنشأ الخلاف هو رؤية الهلال وعدمها إلّا إذا كان هناك من له هدف سيّئ، والدنيا لا تخلو.

السؤال الثامن: الأسلوب الأمثل في تربية الأبناء

يقول السؤال: هل يجوز أن يتعنّت الأب في تربية ابنه؟ وهل يجب على الابن أن يطيع أباه في كل شيء؟

---

(١) بل إننا نلاحظ الاختلاف حتى بين السنة أنفسهم فبعض الدول الإسلامية تفطر أو تصوم في يوم، والبعض الآخر يعلن ذلك في اليوم الذي يليه أو الذي يسبقه.

الجواب: يقع الكلام هنا في مقامين:

الأوّل: طاعة الأبناء أباءهم

ونقول في الجواب هنا: إنّ الأب إذا كان يريد أن يحمل ابنه على المعصية، كأن يأمره بالقتل أو الاعتداء أو شرب الخمر أو ترك واجب شرعي، فهنا لا تجوز طاعة الأب، بل الواجب هنا معصية الأب[١]. أمّا إذا كان يريد توجيه ابنه وإرشاده ونصحه، فيقول له مثلاً: إنّ هذا الأمر في نظري خطأ، وهذا التصرّف غير صحيح، فهنا تكون طاعة الأب واجبة.

الثاني: نبذ العنف واللجوء للأساليب الحديثة في التربية

وهذه المشورة من الأب للابن يجب ألّا تتّخذ طابع العنف أو التعنّت من جانب الأب؛ إذ لا يجوز له أن يلجأ إلى أساليب تؤذي الولد وتسبّب له أضراراً نفسية أو جسدية. وقد ورد: «رحم الله والداً أعان ولده على البرّ»[٢].

فالواجب على الأب قدر الإمكان أن يتجنّب ذلك وأن يستعمل قدر الإمكان التوجيه، والكلمة الطيبة والابتعاد عن إهانة ولده وتحقيره؛ لأن هذه الأساليب تخلق عنده ردود فعل، وتحوّله إلى كائن متمرّد[٣].

هذا في الأُمور العامّة، أما في الأُمور الشرعية فيجب إطاعته، ولو لزم الأمر ضَرْب الابن ضُرِب، كما هو الحال في ترك الصلاة، أو ارتياد أماكن

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ العنكبوت: ٩، وورد في الحديث الشريف: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». نهج البلاغة /الحكمة: ١٦٥.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٣٦٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ١٠١.

(٣) ويجب عليه ألّا ينسى أنّ زمان ولده غير زمانه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تقسروا أولادكم علىٰ آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم». شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٦٧، والمقصود بها هنا المتغيّرات، أما الثوابت الخلقية فلا تشملها هذه القاعدة؛ إذ أن الثوابت أمور أساسية في عملية التربية، فإن تغيّرت تغيّر الهيكل التربوي كله معها.

الانحلال والانحراف؛ فللأب أن يضرب ابنه لو أصرّ على ترك الصلاة أو ارتياد تلك الأماكن. وهكذا في كلّ واجب شرعي أمراً كان أو نهياً، حيث يُضرب الابن على المخالفة الشرعية التي هي معصية للّه تعالىٰ. يبقى أن تلك العقوبة أو الضرب يجب أن يكونا ضمن الحدود الشرعية التي رسمها الله تعالى، فلا تجوز مخالفة الشارع في إيقاعها. ومع ذلك تبقىٰ الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة هما الأساس في عملية البناء التربوي، فالشارع كما يريد البرّ من الولد بوالده، فكذلك يريد الرحمة والرأفة من الوالد بولده.

السؤال التاسع: الدعوة في أماكن الفجور

يقول السؤال: هل يجوز للمسلم أن يدعو إلى الله في أميركا من هو في البار مع علمه بأنّه في غير وعيه؟

الجواب: طبعاً لا؛ لأن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً يجب توفّرها ومراعاتها قبل القيام بهذه الفريضة، ومنها أن يكون المأمور والمنهي واعياً بما يحاول الآمر إيصاله له، وبما يقوله، وهو هنا غير متوفّر. ثم إنّه ما الذي يدفع المسلم للذهاب إلى البار، حتى ولو كان المسوّغ الدعوةَ إلى الله تعالىٰ؟

السؤال العاشر: حربُ الإمام عليّ عليه السلام الجنَّ

يقول السؤال: يقال: إنّ الإمام علياً عليه السلام قد حارب الجن، فهل هذا صحيح؟

الجواب: الذي أعرفه أن للجن مكلّفين بدعوتهم منهم، أمّا ما هو نوعهم، فهذا ما لم تفصح عنه الروايات بشكل واضح. وجميع الروايات التي وردت في هذا الخصوص محلّ تأمّل، والأغلب يعتبرها مرسلة

وفيها تساهل، وبالتالي فإنها ليست محل وثوق عند العلماء؛ لأنهم يقولون: إن أمير المؤمنين عليه السلام غير مكلّف بمحاربة الجنّ، وانّما هو عليه السلام مكلّف بمحاربة الإنس. وقد ذكر القرآن الكريم الجن وصرّح بوجودهم لكن على نحو الإجمال؛ لا التفصيل. ثم إن معرفة ذلك ليس محلّ تكليف.

السؤال الحادي عشر: قيام دولة إسلامية قبل عصر الظهور

يقول السؤال، هل يمكن أن تقام دولة إسلامية قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام؟ وكيف نقضي على الشبهة القائلة بأن الإمام المهدي يظهر عندما تملأ الأرض ظلماً وجوراً؟

الجواب: ليعلم أنه لا تعارض بين قيام حكومة إسلامية وبين وجود الظلم، لأن هذا يمكن أن يجاب عنه من جهتين:

الأولى: ظلم الإنسان نفسه

فمن موارد الظلم مثلاً أن يظلم الإنسان نفسه بفعل المعصية وترك الطاعة[1]. فليس مفهوم الظلم منحصراً بمعنى ظلم الإنسان للآخرين. وعليه فعندما نقول: إنّ الإمام المهدي عليه السلام يقضي على الظلم، فالمقصود به ليس ظلم الإنسان غيره فقط، بل إنّ هناك ظلماً باقياً، هو ظلم الإنسان نفسه، وهو المراد هنا.

الثانية: أن المقصود بـ «الأرض» ليس استيعابها

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الحكومة الإسلامية إن حصلت فإنها

---

(١) قال تعالى: ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ هود: ١٠١. وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النحل: ١١٨.

حتماً لا تملك الأرض كلّها، بل إنها تحصل في بقعة محدودة صغيرة من الأرض، في حين أنّ باقي الأرض كلّه يبقىٰ مملوءاً بالظلم والجور.

وعليه فإن حديث «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[١] ليس على نحو الاستيعاب، أي أنه ليس شرطاً أن يكون كلّ جزء من الأرض مملوءاً بالظلم، بل يكفي فيه أن يكون بعض أجزائها مملوءاً بالظلم والجور. وهذا من قبيل ما يروى من أن فاطمة بنت قيس جاءت رسول الله صلى الله عليه وآله وقالت له: إن معاوية بن أبي سفيان، وأبا جهم خطباني، فما تقول؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له»[٢].

وليس معنى هذا أنه لا يضع عصاه على الأرض مطلقاً، فهو يضعها عند النوم وعند الطعام مثلاً، فهذا التعبير إذن خاضع لأساليب البلاغة، وإلى أن فيه مبالغة. والأمر هنا كذلك فحينما يقول: «الأرض»، فهو يعني أغلب بقاعها وبلدانها وليس تمامها أو كلّها؛ فلا تعارض حينئذٍ بين قيام هذه الحكومة، وبين ظهوره عليه السلام؛ لأن الظلم حتماً سيكون موجوداً في أماكن أخرىٰ، وهذا الوجود مسوّغ للظهور.

السؤال الثاني عشر: إشكال حول خلق الله المعاصي

يقول السؤال: لماذا يخلق الله أصحاب النار وهو يعلم مصيرهم إليها، حيث إنّه تعالى يعلم مصير كلّ مخلوق؟

---

(١) كمال الدين: ٢٢، مسند أحمد ٣: ٢٧، ٢٨، ٣٧، ٥٢، ٧٠، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩.

(٢) مسند أحمد ٦: ٤١٢، صحيح مسلم ٤: ١٩٥، سنن أبي داود ١: ٥١٠ / ٢٢٨٤، سنن النسائي ٦: ٧٧ - ٧٥.

الجواب: أنّ العلم بالشيء لا يغيّر الواقع، فالله جلّ وعلا يعرف أنّ هذا باختياره سيدخل النار، وأنّ هذا باختياره سيدخل الجنة. لأن شأنه عزّ وجلّ هو أن يمنح الإنسان قابلية الفعل وحرّية الاختيار، دون أن يحرمه التصرّف فيهما، إذ أنه تعالىٰ ليس في ساحته بخل. وهذا مثل ما لو أنّ شخصاً يطلب من الدولة قطعة أرض ليزرعها مع علم الدولة بأنّه سيتكاسل عن العمل والزراعة، لكنّها تعطيه إياها؛ فإن تركها ولم يزرعها أو يستصلحها، فإنها ستأخذها منه حينئذٍ وتعاقبه؛ لتركه زراعتها، وطلبه فعل ما لا يفعله.

وهكذا الله تعالىٰ، فهو عزّ وجلّ ليس في ساحته بخل، وإذا طُلب الوجود من اللّه تعالىٰ فإنّه يُفيضه. وقد يستغرب أحد كيف أنّ أحداً يطلب من اللّه الوجود؛ لأن معنى هذا أنه غير موجود، فنقول: إن هذا من أدقّ البحوث الفلسفية، وإنّ ماهية الإنسان قبل أن يخلع عليه الوجود هي بنفسها داعية بلسان الحال أن يمنحها اللّه الوجود. ولأقرب المعنى إلى ذهن القارئ فأقول: إنّ مثل ماهية الإنسان كمثل الأرض العطشة التي يقول العلماء عنها: إنّها تطلب المطر بلسان الحال لا بلسان المقال، فالماهية لم تطلب من اللّه تعالى أن يفيض عليها الوجود بلسان المقال، بل إنها طلبته بلسان الحال، شأنها في هذا شأن الأرض العطشة تماماً.

وبما أنّ اللّه عزّ وجلّ جواد كريم، فهو تعالى لم يبخل عليها بذلك، فأفاض عليها الوجود مع علمه تعالى بأنّ بعض أفراد هذه الماهية سيدخل النار بسبب معصيته وفعله؛ لأن عدم إفاضته تعالى الوجود عليها معناه بخل، وهو تعالىٰ منزّه عنه.

فإذا أفاض اللّه تعالى الوجود على شخص وأعطاه الاختيار، ولم

يتدخل مباشرة في أفعاله وسلوكه، بقي الإنسان هو واختياره؛ فإما أن يختار عمل الخير فيدخله اللّه الجنة، أو أن يختار عمل الشرّ فيدخله النار. لكن نبقى نؤكد على مسألة هي أن علم اللّه تعالى باختياره عمل الشر لا يعني أن اللّه عزّ وجلّ يحرمه من فرصة الوجود؛ لأن حرمانه من الوجود معناه عدم إعطائه فرصة التكليف. والنتيجة أن اللّه تعالى حينما يعطي الإنسان فرصة التكليف وهو عالم بأنه سيكفر أو سيعصي فإنه تعالى إنما يريد أن يظهر معدنه؛ لأن هذا يجب أن يكون داخلاً في دائرة التكليف ليصح فيه مبدأ الثواب والعقاب.

الأسئلة الفقهية

السؤال الأوّل: حرمة لعبة الشطرنج

يقول السؤال: المعروف أنّ لعبة الشطرنج محرمة في الإسلام؛ لأنها تلهي الفرد المسلم عن قضاياه الإسلامية، فنرجو منكم أن تبينوا أدلّة التحريم من القرآن والسنّة، أفيدونا (غفر اللّه لكم).

الجواب: أن الفقهاء والمفسرين من المذاهب الإسلامية كافّة يفتون بحرمة الشطرنج شراء ولعباً، ويستدلون بقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، ومن السنة بقوله ﷺ: «من لعب بالشطرنج والنردشير فكأنما غمس يده في دم الخنزير»[2]، وغيره[3]. ويستثنىٰ من ذلك الإمام الشافعي

---

(١) المائدة: ٩٠.

(٢) الكافي ٦: ٤٣٧ / ١٥، الفقيه ٤: ٥٨ - ٥٩ / ٥٠٩٢، جامع الخلاف والوفاق: ٦١٥، الدراية في تخريج أحاديث الهداية ٢: ٢٤٠.

(٣) كقوله ﷺ: «ملعون من لعب بالشطرنج، والناظر إليه كالآكل لحم الخنزير». الجامع الصغير ٢: ٥٤٠ / ٨٢٠٩، كنز العمال ١٥: ٢١٥ / ٤٠٦٣٦.

حيث إنّه يرىٰ أن التلهي به من غير مراهنة حلال إلّا أن يلهي اللاعب به عن الصلاة فيحرم حينئذٍ[١]. وعدا هذا فإن جميع علماء المذاهب الإسلامية يحرّمونه مطلقاً. ومن أراد أن يتأكد فليرجع إلى كتب التفسير حول قوله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

السؤال الثاني: العقيقة

يقول السؤال: هل يجب على المسلم أن يضحي بشاة أو غيرها عندما يرزقه الله تعالى بمولود؟

الجواب: ليس هناك وجوب في مفروض السؤال، بل إنّه يستحبّ للأب أن يعقّ عن ولده عقيقة، وليس أُضحية.

السؤال الثالث: عدد الرضعات الناشرة للحرمة

يقول السؤال: ما عدد الرضعات التي يصبح معها المرتضع أخاً لابن صاحب اللبن بالرضاعة؟ وهل هناك شروط أُخرى؟

الجواب: أن عدد الرضعات يجب أن يكون خمساً متتاليات حتىٰ يصبح المرتضع أخاً لابن صاحب اللبن، أي أن العدد الذي يكون دون ذلك لا تنعقد به الحرمة. أما الشروط الأُخرىٰ فمنها:

١ـ أن تكون الرضاعة عن طريق الثدي. أي أن يلتقم المرتضع الثدي بفمه، وليس بوسيلة أُخرىٰ كأن يصبّ الحليب في فمه.

٢ـ أن تكون الرضاعة خلال الفترة الشرعية لها، وهي سنتان هجريتان

---

(١) عنه في الخلاف ٦: ٣٠٤ / المسألة: ٥٣. المغني ١٢: ٣٦. الشرح الكبير ١٢: ٤٥. ولم ينقلاه عنه بشرط ألّا يلهي اللاعب به عن صلاته.

من أوّل يوم ولادته، فإذا ارتضع بعد السنتين فلا تنشر الحرمة حينئذٍ.

السؤال الرابع: نكاح المتعة

يقول السؤال: كيف يتم تحويل النكاح المؤقت إلى نكاح دائم؟

الجواب: يتم ذلك بأن يهبها المدّة ثم يعقد عليها ثانية عقداً جديداً دائماً. وأُحبّ أن ألفت النظر هنا إلى أن هذا الموضوع حساس جداً، وقد بحثته بحثاً كاملاً مدعماً بأدلّة ضخمة في كتاب (من فقه الجنس). وإن شاء الله سيجد القارئ في هذا الكتاب إجابات وافية على الكثير من الأسئلة التي تخطر في ذهنه. وقد بينت فيه أنّ نشر هذا النوع من الزواج والتساهل فيه قد تترتب عليه آثار سلبية، أمّا إذا كان ضمن الحدود الطبيعية، وفي نطاق القيود والشروط المفروضة فيه على المُقدم عليه فحينئذٍ لا يكون فيه ما يضرّ أبداً.

والواقع أنني أضيق ذرعاً بهذا الموضوع، والله شاهد على ذلك، فهو حالة استثنائية شرّعت للضرورة؛ فيجب ألّا تأخذ من تفكيرنا كلّ هذا الحيّز.

السؤال الخامس: حكم صلاة النساء في المشاهد المشرّفة

يقول السؤال: ما حكم الصلاة للنساء في المشاهد المقدّسة؟ فهناك نساء يصلين أمام الرجال كما هو حاصل في مقام السيدة زينب عليها السلام.

الجواب: يجب أن يكون هناك حاجز بين النساء والرجال كما ينص عليه الفقهاء؛ للتفرقة بين صلاة الجنسين.

السؤال السادس: حكم تارك الصلاة لفترة من الزمن

يقول السؤال: ما حكم من ترك الصلاة لسنة أو سنتين ثم عاد إليها مرّة

أُخرىٰ؟ وهل يقضي ما فاته؟ وهل عليه كفّارة ذلك؟

الجواب: ليس هناك كفارة في هذا المورد، لكنّ القضاء واجب، فإذا ترك العبد صلاته فالواجب عليه قضاء ما فاته، فيقضي بمقدار ما ترك من صلاة إن كان عارفاً به، وإن لم يكن عالم بمقدار ما فاته من صلاة فإنّه يقضي ويستمرّ على ذلك حتى يحصل عنده يقين بأنّه قد استوعب فترة ترك الصلاة. واللّه تعالى توّاب غفور رحيم يفتح باب التوبة لمن يتوب مخلصاً نادماً سيّما في مثل هذه الليالي المباركة؛ حيث ورد: «إذا كانت ليلة الجمعة أمر الله عز وجل ملكاً فنادى من أول الليل إلى آخره، وينادى في كل ليلة غير ليلة الجمعة من ثلث الليل الآخر: هل من سائل فأُعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ يا طالب الخير أقبل، يا طالب الشرّ أقصر»[1].

(نسأل اللّه أن يرحمنا برحمته)؛ لأنّ الحياة مهما طالت فهي منتهية:

فهبك وهبتها سنتين حولاً ... فما بعد الحياة سوى الممات

السؤال السابع: حكم وجود الصور في البيوت

يقول السؤال: هل إنّ وجود الصورة في البيت حرام حتى لو كانت صورة أحد أفراد العائلة؟

الجواب: طبعاً لا إشكال في وجود الصور الفوتوغرافية ولا ضرر منها ولا حرمة فيها، لكن المجسّمات البشريّة لا يجوز وضعها فيها.

والحمد للّه رب العالمين وصلّى اللّه على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

---

(١) الكافي ٤: ٦٧ - ٦٨ / ٦، دعائم الإسلام ١: ١٨٠.

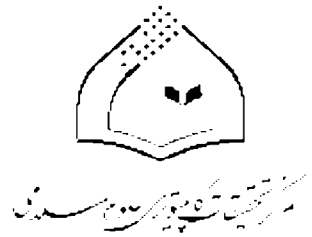

﴿٥٩﴾

المهدي عليه السلام ضرورة دينيّة يفرضها الواقع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: فضيلة ليلة النصف من شعبان

تزدحم في هذه الليلة المباركة الكريمة ثلاث مناسبات:

المناسبة الأولى: إشراقة الحق

ففي مثل هذه الليلة كانت ولادة إمام العصر ومنقذ الأمة وأمل المسلمين والمستضعفين وبقية الله في أرضه. وقد أهلت طلعته المباركة على الوجود فأنارته في ليلة النصف من شعبان في سنة (٢٥٥)، تروي عمة العسكري عليه السلام السيّدة حكيمة بنت الإمام الجواد عليه السلام فتقول: بعث إلي أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام فقال: «يا عمة، اجعلي إفطارك الليلة عندنا؛

---

(١) القصص: ٥ ـ ٦.

فإنها ليلة النصف من شعبان؛ فإن الله تبارك وتعالى سيظهر في هذه الليلة الحجّة، وهو حجّته في أرضه». فقلت له: ومن أمّه؟ فقال عليه السلام لي: «نرجس». فقلت له: جعلني الله فداك، ما بها أثر. فقال عليه السلام: «هو ما أقول لك».

قالت: فجئت، فلما سلّمت وجلست جاءت تنزع خفّي وقالت لي: يا سيدتي كيف أمسيت؟ فقلت: بل أنت سيدتي وسيّدة أهلي. فأنكرت قولي وقالت: ما هذا يا عمّة؟ فقلت لها: يا بنيّة إن الله تعالى سيهب لك في ليلتك هذه غلاماً سيداً في الدنيا والآخرة. فخجلت واستحيت. فلما أن فرغت من صلاة العشاء الآخرة، أفطرت وأخذت مضجعي فرقدت، فلما أن كان في جوف الليل قمت إلى الصلاة ففرغت من صلاتي وهي نائمة ليس بها حادث، ثم جلست معقّبة، ثم اضطجعت، فانتبهت فزعة وهي راقدة، ثم قامت فصلّت ونامت، فخرجت أتفقّد الفجر، فإذا أنا بالفجر الأول كذنب السرحان وهي نائمة، فدخلني الشكوك، فصاح بي أبو محمد عليه السلام من المجلس فقال: «لا تعجلي يا عمّة، فهاك الأمر قد قرب».

فجلست وقرأت ﴿الم﴾ السجدة و﴿يس﴾، فبينما أنا كذلك إذ انتبهت فزعة، فوثبت إليها فقلت: اسم الله عليك، أتحسّين شيئاً؟ قالت: نعم يا عمة. فقلت لها: اجمعي نفسك واجمعي قلبك، فهو ما قلت لك. فأخذتني فترة وأخذتها فترة، فانتبهت بحسّ سيدي، فكشفت الثوب عنه فإذا أنا به عليه السلام ساجداً يتلقّى الأرض بمساجده، فضممته إليّ، فإذا به نظيف متنظّف، فصاح بي أبو محمد عليه السلام: «هلمّي إليّ ابني يا عمّة».

فجئت به إليه، فوضع يديه تحت إليتيه وظهره، ووضع قدميه على صدره، ثم أدلى لسانه في فيه، وأمرّ يده على عينيه وسمعه ومفاصله، ثم قال عليه السلام: «تكلّم يا بني». فقال عليه السلام: «أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له،

وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله». ثم صلّى على أمير المؤمنين عليه السلام وعلى الأيمّة عليهم السلام إلى أن وقف على أبيه، ثم أحجم، فقال أبو محمد عليه السلام: «يا عمّة، اذهبي به إلى أمّه ليسلّم عليها وائتيني به».

فذهبت به إليها، فسلّم عليها، ورددته فوضعته في المجلس ثم قال: «يا عمّة، إذا كان يوم السابع فائتينا».

تقول: فلما أصبحت جئت لأسلّم على أبي محمد عليه السلام، وكشفت الستر لأتفقّد سيدي عليه السلام فلم أرَه، فقلت: جعلت فداك، ما فعل سيدي؟ فقال: «يا عمّة، استودعناه الذي استودعته أمّ موسى عليه السلام».

قالت حكيمة: فلمّا كان اليوم السابع جئت فسلّمت وجلست، فقال: «هلمّي إليّ ابني». فجئت بسيدي عليه السلام وهو في الخرقة، ففعل به كفعلته الأولى، ثم أدلى لسانه في فيه كأنه يغذّيه لبناً أو عسلاً، ثم قال عليه السلام: «تكلّم يا بني». فقال عليه السلام: «أشهد أن لا إله إلّا الله»، وثنّى بالصلاة على محمد صلى الله عليه وآله، وعلى أمير المؤمنين وعلى الأيمّة الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) حتى وقف على أبيه عليه السلام، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1].

لماذا استأثرت ولادته عليه السلام باهتمام المسلمين؟

والواقع أن ولادة الإمام صاحب الزمان عليه السلام تستأثر باهتمام المسلمين من نواحٍ عدة:

الأولى: بلوغ الروايات حدّ التواتر

فالروايات التي وردتنا في هذا الخصوص قد بلغت كمّاً هائلاً عند

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٢٤ ـ ٤٢٦ / ١.

الكثير من المحدّثين والمؤرّخين، وهي مسألة وصلت عند بعض المسلمين إلى حدّ كونها من الضرورات الإسلاميّة، وأن إنكارها كفر. فهناك فتاوى حتى عند أبناء المذاهب الإسلاميّة الأُخرى تكفّر من ينكر صاحب الزمان (عليه الصلاة والسلام)[١]. إن مسألة وجود الإمام المهدي عليه السلام وولادته وأنه الإمام الثاني عشر مسألة مفروغ منها تماماً، وذلك بحكم الروايات والنصوص الواردة إلينا من النبي صلى الله عليه وآله، ومنها ما ورد في كتب الصحاح من أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا يزال الدين قائماً حتى يكون اثنا عشر خليفة من قريش»[٢].

وفي رواية أنه صلى الله عليه وآله قال: «لا تنقضي الدنيا حتىٰ يملك العرب رجل من أهل بيتي - أو قال: عترتي - يواطئ اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[٣].

وقال صلى الله عليه وآله: «من ولدي اثنا عشر نقيباً نجباء محدثون مفهمون، آخرهم القائم بالحقّ يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»[٤].

ثم يبدأ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بإعطاء صفات هذا الإمام (عليه أفضل الصلاة والسلام)، فيقول: «على خده الأيمن خال، مفلّج الثنايا»[٥].

وفي رواية أُخرى أنه إذا خرج «قسم بالسوية، وعدل في خلق الرحمن؛ البرّ

---

(١) وسوف يذكر المحاضر إن شاء الله من خلال هذا البحث الكثير من المصادر التي تناولت هذا الموضوع وأشبعته بحثا ودراسة.

(٢) مسند أحمد ٥: ٨٦، صحيح مسلم ٦: ٣ ـ ٤، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٧٩.

(٣) انظر: الحدّ الفاصل: ٣٢٩، صحيح ابن حبّان ١٥: ٢٣٧، المعجم الأوسط ٢: ٥٥، ٧: ٥٤، المعجم الكبير ١٣٣ ـ ١٣٧ / ١٠٢١٤ ـ ١٠٢٣٠، وغيرها كثير.

(٤) تقريب المعارف: ٤١٩، شرح أُصول الكافي ٢: ٢٤٠.

(٥) الغيبة (النعماني): ١٥٠، عن أمير المؤمنين عليه السلام.

منهم والفاجر منهم، من أطاعه أطاع الله، ومن عصاه عصى الله... وتخرج الأرض كنوزها من الذهب والفضة، فيقول: أيها الناس هلمّوا، فخذوا ما سفكتم فيه الدماء، وقطعتم فيه الأرحام. ويعطي ما لم يعطِه أحد قبله، ولا يعطيه أحد بعده. اسمه اسم نبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[1].

إلى آخر ماورد في نعته من الروايات.

إذن فالروايات قد تكاثر نقلها بخصوصه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وعن أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك عن أيمّة أهل البيت عليهم السلام. إن كلّ الروايات التي تشير إلى هذا المجال تنصّ على أنه الحفيد الثاني عشر لأمير المؤمنين عليه السلام، وأنه بهذا الاسم. أما الإضافة التي أُضيفت إلى الروايات المختصّة بهذا الباب وهي عبارة «واسم أبيه اسم أبي»[2]، فهي منحولة وغير صحيحة؛ لأن الروايات الصحيحة لم تذكر هذه الزيادة، وقد وضعت بعد ذلك. وهذه المسألة مجمع عليها.

وكما ذكرنا فإن هناك الكثير من المصادر التي تناولت قضية الإمام عليه السلام وأشبعتها بحثاً ودراسة وإجابة عن الإشكالات المعترضة والمطروحة كافّة. وذلك من قبيل كونه حيّاً يعيش بيننا، ومن قبيل كونه من أهل البيت عليهم السلام أو من حيث تسلسله بالنسبة للأئمة عليهم السلام، وقد ردّت على كل الإشكالات والاعتراضات والشبهات التي طرحت في الساحة في خصوص هذا الموضوع. وقد وصل الأمر عند البعض إلى حدّ الحكم بكفر منكرها وخروجه عن الملّة كما ذكرنا.

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٣٩٧ / ١٢٧٨، بحار الأنوار ٥٢: ٣٣٧ / ٧٧، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٥٧ / ٤٠٧٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٩٢ - ٤٩٣.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٣٠٩، تحفة الأحوذي ٦: ٣٩٣، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

ولعل أقرب المصادر التي بين أيدينا، والتي تناولت هذه المسألة بحثاً ودراسة وردّاً كتاب (البيان) للجلندي الشافعي، وكتاب (الغيبة) للشيخ الطوسي وكتاب (المهدي الموعود عليه السلام) للشيخ نجم الدين العسكري. وهناك عشرات الكتب غيرها، ومنها القسم الخاص بالمهدي المنتظر عليه السلام من كتاب (البحار) للعلّامة المجلسي، وما إلى ذلك. ومن هذا نرى أن مسألة حقيقة المهدي عليه السلام هي مسألة مفروغ منها عند المذاهب الإسلامية كافّة.

اختلاف المسلمين في زمان ولادته عليه السلام

لكن هنالك نقطة هامة تعترض في هذا الباب، وهي: هل إنه عليه السلام مولود وموجود، أم إنه غير مولود الآن، وإنه يولد في زمان ظهوره؟ الذي عند الأعمّ الأغلب من المذاهب الإسلامية أنه سوف يخلق بعد ذلك، وأنه سوف يولد في زمان ظهوره. وحتى أكثر المؤرخين بعداً عن هذا اللون من الفكر كابن خلدون فإنه يذكره في مقدمته[1]، وينصّ عليه. كما أن هناك روايات تشير إلى أنه عليه السلام سيفتح القسطنطينية ويستولي على أموال الروم ويوزّعها على فقراء المسلمين[2]. وابن خلدون ليس وحده في هذا الأمر، بل هنالك طائفة أخرى من أبناء المذاهب الإسلامية وإن كان هؤلاء يقرّون بأنه يولد في زمان ظهوره.

أسباب إنكار وجوده عليه السلام

وسرّ استبعادهم لهذه المسألة واعتراضهم عليها وإشكالاتهم حولها

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١: ٣٢٥.

(٢) المصدر نفسه، شرح الأخبار ٣: ٣٧٦، تاريخ مدينة دمشق ٣٧: ١٥.

تعود إلى عدّة أسباب منها:

الأول: انتفاء جدوى وجوده

فهو عليه السلام إذا كان موجوداً غائباً، فإنه لافائده تتحقّق منه، فمادام غائباً لا يتّصل بالناس ولا ينفعهم، فأي فائدة ترجى من وجوده إذن؟

الثاني: أن في بقائه خرقاً للناموس الطبيعي

كما أن في بقائه عليه السلام هذه الفترة الطويلة خرقاً لقوانين العمر البشري الذي لا يمكن أن يدوم لهذه الفترة الطويلة من وجهة نظرهم. وهو عليه السلام بهذا يكون قد تجاوز معدل عمر الإنسان في هذا الزمان، وحتى معدل عمر آبائه عليهم السلام برقم كبير جدّاً؛ حيث إن آباءه عليهم السلام قد توفّوا وهم في عقدهم السابع. إذن فمن غير الممكن أن يعيش هذا العمر الطويل الخارق للعادة وللقوانين الطبيعية البشرية.

الثالث: انعدام مبرّرات الغيبة

وهنا ينتقلون إلى جهة أُخرى من الإشكالات وهي انعدام الدوافع التي تبرّر اختفاءه عليه السلام، فهم يقولون: ليس هنالك أي موجب لأن يختفي عن الناس، فما هي العلّة التي حصل من أجلها هذا الاختفاء؟

الردّ على هذه الإشكالات

ولنبدأ بالإجابة على هذه الإشكالات واحداً واحداً بإشارات بسيطة إن شاء الله تعالى:

الجواب عن الإشكال الأول

وهو الإشكال المبتني على انعدام الثمرة من وجوده عليه السلام حال غيبته،

والجواب عن هذا الإشكال هو أن يقال: إن ظواهر الروايات والنصوص تحملنا وتأخذ برقابنا أخذاً للإيمان بهذا المعتقد والتصديق به، وهي الروايات التي تؤكّد ـ على نحو الجزم ـ على أن الله جلّ وعلا لا يخلي الأرض من حجّة له، فالأرض لا يمكن أن تخلو في يوم من الأيام من نبي، فما ترك الله جل وعلا عصراً من العصور لم يبعث فيه نبيّاً للناس يعلّمهم ويرشدهم، ويهديهم ويوضح لهم معالم طريق الله تعالى والصواب من طريق الشيطان. والسبب في هذا واضح، وهو أنه تعالى إذا ترك أُمّة من الأمم في زمان من الأزمنة من غير نبيّ يبعثه إليهم فإنه يكون قد أعطاهم المسوّغ لأن يحتجّوا عليه بأنهم لم يُبَلّغوا قوانينه وتشريعاته، وبالتالي فإنهم غير مستحقّين لعذابه.

كما أنه تعالى لا يبعث لهم الحجّة التي تحتجّ عليهم يوم القيامة بأنه كان نبيّاً لهم، وانه أمرهم ونهاهم ولم يأتمروا ولم ينتهوا[1]. فالله تعالى حينما يسأل عباده غداً عن التكاليف التي كلّفهم بها لابدّ أن يكون هناك من أوصلها إليهم ليعذّبهم على تركها، وإلّا فكيف يمكن أن يسألهم ولم يكن قد بعث إليهم نبيّاً؟ بل إن هؤلاء المكلّفين من السهل جدّاً أن يروا بأنهم لم يُبَلغوا ولم يأتهم من يلقي الحجة عليهم أو يقيمها عليهم. فإذا أرد الله أن يحتجّ على عباده فلابد أن يبعث إليهم بنبي حتى يقول لهم: إني قد بلّغتكم وألقيت عليكم الحجّة عن طريق النبي الذي بعثته إليكم، والكتاب الذي أنزلته عليكم.

---

(١) وهو تعالى يقول: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الزمر: ٦٩.

وهذا الأمر من البديهي والثابت الذي لايناقش فيه إلّا معاند، فالله جلّ وعلا لابدّ أن يلقي الحجة على عباده، ولا يلقيها إلّا نبي وكتاب، أو وصيّ نبيّ. وعليه فإن الله جلّ وعلا ما لم يبعث الحجة لا يعذب عباده[1].

هذا في خصوص النبي صلى الله عليه وآله أما الإمام عليه السلام ـ وهو وصي النبي ـ فمن الثابت أن الغاية من بعثته ومن وجوده هي الغاية عينها من وجود النبي صلى الله عليه وآله ومن بعثته، والله جلّ وعلا حينما يتوفّى أنبياءه فمن غير المعقول أن يترك الأرض من غير حجّة تقوم مقامهم، وتبلّغ عباده، وتلقي عليهم هذه الحجة يوم يلقونه.

وربما هنا يقول قائل: إن العالِم يكفي في هذا المجال، والكتاب موجود، وهو يكفي كذلك، وعليه فلا حاجة في هذا العصر إلى هذا الحجّة التي تحلّ محل النبي صلى الله عليه وآله.

والجواب: أن هذا الكلام ينطوي على مغالطة؛ ذلك أنه لو كانت الكتب السماوية كافية لما بعث الله أنبياءه بعد من أنزل عليهم كتبه، كالنبي موسى والنبي عيسى عليهما السلام، فما دام الكتاب كافياً فلا حاجة إذن إلى بعثة النبي صلى الله عليه وآله معه بعد عيسى عليه السلام أو لبعثة الأنبياء عليهم السلام بعد موسى عليه السلام. وحتى على صعيد كتاب المسلمين ـ وهو القرآن الكريم ـ فإنه إذا كان كافياً فلا حاجة معه إذن إلى نصب الإمام مع أن الأُمّة الإسلاميّة كافّة مجمعة على ضرورة نصب الإمام ووجوبه، لكن هذا الإجماع على النصب يختلف باختلاف نظريات المسلمين؛ فمنهم من يذهب إلى أن وجوبه عقلي، وغيرهم يرى أنه شرعي. فهذا الأمر قد وقع فيه اختلاف بين المسلمين.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ الإسراء: ١٥.

رواية «لا تخلو الأرض من حجّة»

ثم إن هناك رواية مشهورة، هي رواية عدم خلو الأرض من حجة، فالله جلّ وعلا لا يخلي الأرض من حجة، وهذا الحجّة إمّا أن يكون نبيّاً، وإمّا أن يكون وصيّاً له[١].

الجواب عن الإشكال الثاني

أمّا حول غيبته عليه السلام وتعذّر الوصول إليه، فهذا أيضاً غير صحيح؛ لأن الوصول إليه غير متعذّر، وهنالك الكثير من الروايات التي تنصّ على أنه قد رآه كثير من الناس[٢].

احتجاب عن النظر وليس احتجاباً عن الوجود

وهذا يقودنا إلى تأكيد مسألة هامّة جداً، وهي أن احتجابه عليه السلام ليس احتجاباً عن الوجود وإنما هو احتجاب عن النظر، فربما هو عليه السلام الآن في مجلس من مجالسنا ولا نراه، وربما نراه ولكن لا نعرفه كما تقول الروايات التي تنصّ على وجود مسألة الرؤية له عليه السلام. فهو عليه السلام إذن محتجب عن العيون والأبصار، وليس عن الواقع والحياة التي يعيش فيها أتباعه، والتي يعيش فيها المسلمون وغير المسلمين بشكل عام. بل إن البعض من علمائنا يذهب إلى أن الإجماع إنما كان حجّة لأنه قد دخل فيه الإمام عليه السلام، وقول الإمام عليه السلام حجّة. وهذا يعني أن الإمام عليه السلام يسدّد هؤلاء العلماء ويوجّههم

---

(١) انظر: الأُصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢ / ٤٥، ٢٣٤ / ١٩٣، ٢٣٦ / ٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨ / ١، ٤٨٩ / ٤، ٥٠٥ ـ ٥٠٦ / ٤، ٩ ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧ / ١٧، ٥٠٩ / ٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

(٢) انظر بحار الأنوار ٥٢: ١ ـ ٧٨ / ب ١٨.

الوجهة الصحيحة في استنباط الحكم الشرعي.

فهو عليه السلام يلقي برأي من آرائه الحكيمة أو الصائبة أو الصحيحة التي تصيب الحكم الواقعي في هذه المسألة بين هؤلاء العلماء المجمعين؛ حتى يسدّد رأيهم.

وهذه المسألة دقيقة جدّاً، وهي مسألة واسعة ومعقدة، ولا أُريد أن أخوض فيها الآن في هذه العجالة؛ لأنها ممّا لا يتّسع له الزمان ولا المقام.

وعلى أية حال فعلى نحو الإجمال نقول: إن العلّة من وجود الإمام عليه السلام هي عينها العلّة من وجود النبي صلى الله عليه وآله في كلّ زمان وفي كلّ مكان، وعليه فإن الله جلّ وعلا لا يمكن أن يخلي الأرض من حجّة يثبت الحكم الشرعي، وينّصف بكونه معصوماً؛ لأنه لابدّ من أن ينقل الحكم بشكل لا يمكن معه الأخذ والردّ، أو التشكيك فيه، فلا يمكن للمعصوم أن ينقل حكماً يكون معه قائل لهذا الأخذ والردّ وما إلى ذلك. وبمعنى آخر فإنه لابدّ من العصمة حتى لا يتطرّق الخلل والعيب إلى مضمون الأحكام.

مفهوم العصمة عند المسلمين

وكأنما يمثّل مفهوم العصمة حالةً من حالات التعسّف للمسلمين، وينظر إليه بعضهم على أنه شيء خيالي لا يمكن وقوعه، فينظرون إليه نظرة ملؤها الشكّ والريب والتحفظ، بل والتهاون أيضاً. كنت مرّة في الإمارات وقد بحثت هذا الموضوع في إحدى المحاضرات، فجاءني أحد المسؤولين الكبار وقال لي: كنت متخلّفاً عن فهم هذه المسألة، ولم أستطع أن أُدخلها في ذهني، أمّا الآن فلا.

والذي جعله يصل إلى هذا الفهم هو أنني طرحت هذه المسألة على

صيغة تساؤل فقلت: هل يمكن لنا الآن أن ننقد أحداً من صحابة النبي صلى الله عليه وآله؟ ثم أجبت بأنه لا يمكن لنا هذا في واقع المسلمين؛ لأننا حينما ننقد صحابياً فإن المسلمين جميعاً يتوجّهون إلينا باللوم، وبالاتّهام بأننا نخطّئ أشخاصاً لا يمكن أن يخطئوا. فهم يرموننا بأننا نخطّئ صحابة النبي صلى الله عليه وآله، وهم جماعة لا يجوز عليهم الخطأ. وليس هذا في واقع الأمر إلّا العصمة؛ لأن العصمة هي أن ندّعي لشخص أو نُثبت له أنه لا يجوز عليه الخطأ. فإذا كان هذا المفهوم جائزاً لصحابة الرسول صلى الله عليه وآله فعليّ عليه السلام منهم، وكذلك أولاده عليهم السلام من بعده [1].

فالعصمة هي أن يكون الشخص على نمط معيّن من التربية العالية؛ بحيث إنه لا يصدر منه القبيح، ولا يترك واجباً، ولا يفعل محرّماً. ولو رجعنا إلى تعريف العصمة عند فقهائنا، لوجدنا أنهم ينصّون على أنها لطف يفعله الله تعالى بالمكلف؛ بحيث إنه لا يكون معه داعٍ إلى ترك الطاعة أو فعل المعصية مع وجود القدرة عليهما. أي أن هذا المعصوم يستطيع أن يفعل المعصية لكنه لا يأتيها بما يمتلكه من التربية العالية، والخلق الرفيع.

ولو رجعنا إلى واقعنا الذي نعيشه، لوجدنا أن هناك الكثير من الأشخاص على شاكلة المعصوم وإن لم يكونوا كذلك بالمعنى الاصطلاحي، فنجدهم يمتنعون عن فعل القبائح والمعاصي، ولا يتركون الطاعات، بل إنهم يلازمونها.

وكذلك الأمر في تهذيب المعصوم عليه السلام وأخلاقه واستقامته وورعه

---

(١) لأنهم عليهم السلام مطهّرون بنصّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣.

وتقواه، وليس هذا إلّا العصمة التي هي لطف إلهي.

ونحن لانقول: إن في العصمة إلجاء؛ لأنه لو كان فيها إلجاء لم يكن فيها فضل أو فضيلة لصاحبها؛ لأن الله جلّ وعلا قد جبله على ترك المعصية وفعل الطاعة. وحينئذٍ فلا فضل له؛ لأنه حينما يسلبه الله جلّ وعلا القدرة على تحقيق الدواعي إلى فعل المعصية وترك الطاعة، فإنه حينئذٍ لا فضل له في هذا المجال. وعليه فالمسألة لاتعدو كونها نوعاً من التربية العالية والخلق السامي الذي يربّي الله جلّ وعلا عليه أنبياءه ورسله وأوصياءه وخاصّته.

وكما أن الأب المؤمن الملتزم يحاول أن يربّي أبناءه على التربية العالية والخلق القويم؛ كي يكونوا أفراداً صالحين محبوبين في المجتمع، يحترمهم الناس ويقدّرهم، فكذلك الله جلّ وعلا يعمل على تربية أنبيائه ورسله بذلك النمط، وكذلك يفعل مع أوصيائهم ذلك النمط من التربية العالية والخلق السليم والقويم؛ كي يكونوا قدوة للناس فيهتدوا بهم.

إذن فوظيفة الإمام هي وظيفة التثبيت للأحكام الشرعيّة، وهذه هي الوظيفة عينها للنبي صلى الله عليه وآله، وما داما يؤدّيان الوظيفة عينها فلابدّ إذن أن يكونا في هذا المجال على مستوى واحد من الحجّة؛ لأنه جل وعلا لايخلي الأرض من حجّة على الناس يوم القيامة. وهذه الحجة لابدّ أن تكون موجودة في كلّ عصرٍ وزمان ومكان، فإن لم تكن لنبي فهي لوصي نبي.

ثم إن المسلمين يعتقدون بأن هناك بعض الأشخاص لازالوا يعيشون حتى الآن، ومنهم النبي عيسى عليه السلام فإنه لازال حيّاً، والقرآن الكريم يقول:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[١].

كما أنهم يعتقدون بحياة الخضر وغيره من الأشخاص الذين يرون أنهم قد عاشوا كلّ هذه الفترة الطويلة. ولو أننا رجعنا إلى أخبار المعمرين لوجدنا أن الكتب المختصّة في هذا المجال تروي أن هناك بعضاً ممن عُمّر ثلاثمئة سنة أو أربعمئة سنة أو حتى أكثر من ذلك، والكتاب الأصدق من كل هذه الكتب هو القرآن الكريم الذي يحدّثنا عن النبي نوح عليه السلام الذي عُمّرَ طويلاً حتى إن فترة دعوته فقط كانت تسعمئةٍ وخمسين سنة[٢].

وحينما يجتاز الإنسان المعدل الطبيعي لعمر الإنسان، فإنه حينئذٍ لافرق بين أن يكون هذا الاجتياز بألف سنة أو أقل منه أو أكثر، فما دام قد اجتاز السنّ المألوفة والطبيعيّة فحينذاك لا فرق في كون هذا الاجتياز قليلاً أو كثيراً، فمادام الخصم يقول: إن من الممكن أن يجتاز الإنسان المعدّل الطبيعي ـ وهو السبعون سنة، أو الثمانون سنة ـ فحينئذٍ لا ضير ولا فرق في أن يكون هذا الاجتياز مئتي سنة أو ألف سنة؛ ذلك أنه باجتيازه الحدّ الطبيعي تصبح المسألة كميّةً فقط، ليس إلّا.

إذن فنحن لسنا منفردين في هذا المجال، ولم نكن بدعة في التاريخ أو في العقائد حينما نقول بهذا. ثم إن الذي يقول بأن الإمام عليه السلام موجود حالياً، لا يقول بأنه كذلك بشكل طبيعي، بل بشكلٍ معجز، بمعنى أن المعجزة تتدخّل هنا ويقوم الإعجاز الإلهي بدوره في تحقيق هذا الأمر. وإذا كانت معجزةً فإن الأمر حينئذٍ يخرج من حيّز الاستغراب ودائرة التعجّب؛ لأن الله جلّ وعلا لايعجز أن يجعل عمر إنسان معين داخلاً

---

(١) النساء: ١٥٧.

(٢) قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ العنكبوت: ١٤.

ضمن نطاق الإعجاز. فهذا غير ممتنع أبداً؛ ذلك أنه داخلٌ في دائرة الإمكان وليس في دائرة الممتنع.

وبمنظار آخر فإننا نقول: إن الموت ما هو إلّا قطع حبل الحياة. وإذا أراد الله جل وعلا أن يمدّ في هذا الحبل ولايقطعه، فليس هناك من مانع أبداً، فيمنح خلايا الإنسان القدرة على عدم التلاشي، ويمنح أجهزته القدرة على الاستمرار؛ وبالنتيجة فإنه سوف لن يستهلك تلك الأنسجة والأجهزة، وإنما سوف يعيش بتجدّدها كلّ مرة. وهذا معنى أن الله تعالى يعطي الإنسان القدرة على البقاء.

نعم إن هذا هو الشيء الاستثنائي عن القاعدة، فالقاعدة هي أن يكون للإنسان أمدٌ وأجل تنتهي حياته عند بلوغه، أما إذا خرمت هذه القاعدة، ومدّ في حبل الحياة، ومدّ في عمر الإنسان وأجله، فإن هذا هو استثناء من القاعدة، وليس هو الأمر الطبيعي أو القاعدة. فالروايات الشريفة تأخذ بأعناقنا، وتحملنا على الاعتقاد بهذا الأمر، مع أنه غير ممتنعٍ واقعاً أو عقلاً.

وليعلم الآخرون بأن هذه الخطرات والإشكالات التي تخطر في أذهانهم تخطر في أذهاننا أو على عقولنا كذلك دون اختلاف ودون توقّف، لكن مالذي يمكن أن نفعله ونحن أمام هذا الكمّ الهائل من الروايات والنصوص المثبتة لهذا الأمر، والتي تأخذ بأعناقنا إلى الاعتقاد به؟ فنحن حينما نقرأ رواية صحيحة السند عن رسول الله صلى الله عليه وآله تخبرنا بأن الإمام الثاني عشر من ولده يعيش بين ظهرانينا، فإننا نصبح ملزمين أن نأخذ بها ونتعبد، وأن نقطع بوجوده عليه السلام. والرواية التي أشرنا إليها أنه عليه السلام

«بين ظهرانيكم، يراكم وترونه، ويرعاكم وترعونه».

إضافة إلى قوله صلى الله عليه وآله: «لا تخلو الأرض من حجّة»[١]، وإلى قوله صلى الله عليه وآله: «لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج من أهلي من يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[٢].

و «المهدي منّا أهلَ البيت، أشم الأنف أقنى أجلى، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يعيش هكذا»، وبسط يساره وإصبعين من يمينه؛ المسبّحة والابهام، وعقد ثلاثة[٣].

وإلى آخر ما هنالك من الروايات التي لا يمكن إلّا أن يذعن لها الإنسان، وإلّا أن يتعبّد بها ويخضع لها. وبناء على هذا فقضيّة العمر المديد مسألة مأخوذةٌ هنا على نحو المعجز لا على نحو الشكل الطبيعي.

---

(١) انظر: الأُصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢ / ٤٥، ٢٣٤ / ١٩٣، ٢٣٦ / ٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨ / ١، ٤٨٩ / ٤، ٥٠٥ ـ ٥٠٦ / ٤، ٩ ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧ / ١٧، ٥٠٩ / ٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠ / باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٧، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣ / ٢٢٣٨، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

وقد روي في كثير من الكتب من غير لفظ: «لطوّل الله ذلك اليوم»، انظر: سنن ابن ماجة ٢: ٩٢٩ / ٢٧٧٩، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ ـ ٣١٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٩، صحيح ابن حبّان ١٣: ٢٨٣ ـ ٢٨٣، المعجم الكبير ١٠: ١٣٣، المعجم الأوسط ٢: ٩٩، وغيرها.

(٣) شرح الأخبار ٣: ٥٦٥ / ١٢٥٩، دلائل الإمامة: ٤٦٤ / ٤٤٥، مسند أحمد ١: ٨٤، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٦٧ / ٤٠٨٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٥٥٧، قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، الجامع الصغير ٢: ٦٧٢ / ٩٢٤٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٨ / ١٩٠.

الجواب عن الإشكال الثالث

وهو المتعلّق بالمبرّر لغيبته عليه السلام، وأنه عليه السلام إذا كان موجوداً فما الفائدة من وجوده، وهو لا يمكن أن يرىٰ؟ ولقد ولد (سلام الله عليه) سنة مئةٍ وخمس وخمسين للهجرة، وتوفّي أبوه الإمام العسكري عليه السلام وله من العمر خمس سنوات، وكان خلال تلك الفترة يلتقي أصحابه ويلقي عليهم تعاليمه، ويسألونه فيأخذون منه أحكامهم على نحو التكتّم. وبعد ذلك اضطرّته أسباب كثيرة أغلبها سياسي إلى أن يغيب عن نظر أوليائه. وهناك عدّة نظريات تعلل وتفسّر تلك الغيبة، منها نظريّة تقول بأنه عليه السلام إنما غاب عن الأنظار تجنّباً للقتل. وإن كنت أرى أن بهذه النظريّة شيئاً من اللّامعقوليّة وشيئاً من الضعف، لكنها تبقى ممكنة ولا يمنع منها الواقع؛ لأننا عشنا ظروفاً صعبة وحرجةً تجعل كلّ ما هو شيعي مصدر رعب وخطر على السلطات ومركز خوف وتخوّف لها حتى قبر الإمام عليه السلام وليس الإمام نفسه. وكمثال شاهد على ذلك قبر الإمام الحسين عليه السلام الذي أوصل الرعب منه بصاحبه إلى أن يقصف ذلك القبر.

إذن فنحن لانستطيع أن نبتّ في العلّة أو الحكمة الكامنة وراء غيبته عليه السلام أو أن نحددها، أو أن نحدّد اللطف الكامن وراء ذلك. وغاية ما في الروايات أنها تنصّ على أنه عليه السلام إنما غاب، وأن غيبته عن الأنظار وليست عن الوجود؛ بدليل قوله صلى الله عليه وآله: «بين ظهرانيكم». أما الدوافع الحقيقية للابتعاد والغَيبة، فربما كانت ما علّلوه، وربما كانت ما لم يعلّلوه؛ ذلك أن الله جلّ وعلا أعلم بحقائق الأُمور.

الغيبة الصغرى

على أية حال فالإمام عليه السلام غاب غيبته الأُولى المسمّاة بالغيبة الصغرى

التي كان فيها الواسطة بينه وبين الناس أربعة سفراء هم:

الأول: عثمان بن سعيد الأسدي السمان، المتوفىٰ سنة (٢٨٠) هـ.

الثاني: ولده محمد بن عثمان، المتوفىٰ سنة (٣٠٤) أو سنة (٣٠٥) هـ.

الثالث: الحسين بن روح النوبختي، المتوفىٰ سنة (٣٢٦) هـ.

الرابع: علي بن محمد السمري، المتوفىٰ سنة (٣٢٩) هـ.

وهم الذين كانوا يسمون بالنواب الأربعة، أو الوكلاء الأربعة، أو السفراء الأربعة للإمام الحجّة المنتظر عليه السلام، والذين كانوا يمثّلون حلقة وصل بينه وبين شيعته وأتباعه. فقد كانت تمرّ عن طريقهم الاستفتاءات والأوامر والحقوق وما إلى ذلك، وكانت التوقيعات الشريفة التي تخرج من الناحية المقدّسة إلى الشيعة تخرج على أيدي هؤلاء الأربعة، ومن ذلك مثلاً التوقيع الذي أقرّ للمرأة الخروج في جنازة زوجها، تقول الرواية: سئل عليه السلام عن المرأة يموت زوجها، هل يجوز لها أن تخرج في جنازته، أم لا؟ التوقيع: «تخرج في جنازته». وهل يجوز لها وهي في عدّتها أن تزور قبر زوجها، أم لا؟ التوقيع: «تزور قبر زوجها، ولا تبيت عن بيتها». وهل يجوز لها أن تخرج في قضاء حقّ يلزمها، أم لا تخرج من بيتها وهي في عدّتها؟ التوقيع: «إذا كان حقاً خرجت فيه وقضته، وإن كان لها حاجة ولم يكن لها من ينظر فيها خرجت لها حتى تقضيها، ولا تبيت إلا في منزلها»[1].

وعلى يد آخر النواب الأربعة ـ وفي آخر لحظات سفارته ـ خرج التوقيع من الناحية المقدّسة موجّهاً إلى شيعته، يقول عليه السلام فيه للسمري: أيام، فاجمع أمرك ولا توصِ إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك؛ فقد وقعت الغيبة

---

(١) الغيبة ٢: ٢٣٠، وسائل الشيعة ٢٢: ٢٤٥ / ٢٨٥٠٣.

التامّة، فلا ظهور إلّا بعد إذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جوراً»[١].

وبالفعل فإنه جهز نفسه، واستعدّ للقاء خالقه بعد الأيام السبعة التي حدّدها له الإمام عليه السلام وتوفي ولم يعهد إلى أحد، ولم يوصِ بعده بوصيّة السفارة.

الغيبة الكبرى

وبوفاة السفير علي السمري (رضوان الله تعالى عليه) حدثت الغيبة الكبرى التي لا يعلم أمدها إلّا الله جلّ وعلا، ولا يعلم أحد متى يخرج الإمام عليه السلام سواه تعالى، فموعد الفرج على يديه الشريفتين هو من مختصّات علم الله جلّ وعلا، وليس يعلمه أحد. وهناك جملة كبيرة من الروايات الشريفة التي تنصّ على أنه عليه السلام يتحيّن وينتظر ساعة الفرج، فهو عليه السلام ينتظر متى يأمره الله تعالى بأن يخرج ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

وقد أحببت أن أبيّن هذه الفكرة وأبعادها وإن كنّا على عجالة في هذه الليلة؛ لأنها ليلة مولد هذا الإمام المنقذ؛ حيث تشرّفت الدنيا إذ تشرّفت أبعادها بطلوع جبين هذا الإمام العظيم.

والجواب على التساؤل الوارد أول الكلام عند الجواب عن الإشكال الثالث حول المبرّر لوجوده يكون في مقامين:

الأوّل: أنه لطف بالمكلّف

يقول العلماء: إنّ وجود الإمام عليه السلام هو لطف إلهي للمكلّفين وبهم،

---

(١) الغيبة (الطوسي): ٣٩٥، الثاقب في المناقب (ابن حمزة): ٦٠٣.

بمعنى أنّ كل المسلمين يعتقدون الآن بوجود الجنة والنار، والقرآن الكريم يصرّح بهذا في موارد كثيرة، منها ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وأُعدت بمعنى هيّئت، أي أنّها موجودة فعلاً، مع أننا لا يمكن لأحد منا أن يصل إلى الجنة والنار، فهل معنى هذا أنّ وجودهما عبث؟ إذ أننا الآن في دار تكليف ولسنا في دار جزاء، وإذا أساء أحد المكلّفين أو أحسن فهو لا يُدخل النار أو الجنّة الآن، بل إنّه سيحشر يوم القيامة، ثم يجازىٰ حينها على عمله.

إذن فما فائدة الجنة والنار الآن؟ ولماذا هما موجودتان بالفعل مع أننا لا نستطيع أن نصل إليهما ولا أن نحشر فيهما الآن، واللّه تعالى منزّه عن العبث؟ يجيب علماء المسلمين على هذين التساؤلين وغيرهما بأنّ هناك لطفاً من اللّه تعالى بعباده حيث أوجدهما الآن وخلقهما مع أننا لا نتمكن من الوصول إليهما. فهو لطف من اللّه تعالى للمكلف وبه؛ إذ أن المكلّف إذا عرف أن هناك ناراً وجنة وأنهما أُعدّتا له؛ إن أحسن فللجنّة لينعّم فيها، وإن أساء فللنار ليعاقب فيها، فإن هذا سيكون له تأثير على سلوكه؛ حيث إنّه حينها سيخشىٰ النار ويحاول تجنّبها ويسعىٰ لذلك، وسيطمع في الجنة ويحاول الوصول إليها ويسعى لذلك لمرحلة ما بعد الموت. وبهذا يكون وجودهما لطفاً بالمكلفين.

وفي قضية الإمام المهدي عليه السلام يكون الجواب نفسه؛ حيث إنّ وجود الإمام فيه لطف بالمكلف وإن لم يكن هذا المكلّف يراه.

---

(١) آل عمران: ١٣٣، وكذا ما ثبت من حديث المعراج، ورؤيته صلى الله عليه وآله النار وأهلها.

الثاني: أنه عليه السلام يُرىٰ ويستفاد منه

إنّ هذا التقريب المارّ هو تقريب بناءً على القول بأنّ الإمام عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ، وتسليماً لمن يقول بذلك، أما وجه الحقّ فمن قال: إنّه عليه السلام لا يمكن أن يرىٰ أو يُتّصل به؟ إنّ الحقّ أنّه عليه السلام يمكن رؤيته لكن لا يمكن معرفته. وهذا له نظائر عندنا أيضاً، فالمسلمون بأجمعهم يرَون أن النبي عيسى عليه السلام رفع إلى السماء حياً، وأن الخضر حيّ كذلك، وهذا بإجماع منهم، وأن الخضر يرىٰ من قبل فئة خاصة، أي أنه حي يعيش معنا لكن لا يمكن معرفته، وكذلك الإمام المهدي عليه السلام، فإنّه يمكن أن يلقي بين العلماء رأيه في مسألة ما يكون اختلافهم فيها كبيراً، ويمكن أن يرشدهم إلى الجواب الصحيح دون أن يعرفوه. وهذا ما عليه أغلب جمهور علماء الشيعة الإمامية[1].

المناسبة الثانية: أنها ليلة الرغائب

وهي الليلة التي يعبّر عنها القرآن الكريم بأنها ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[2]. ومعنى هذا أنها تحدّد فيها كثير من الأُمور، ومنها مسألة الآجال؛ ففي هذه الليلة تحدّد آجال جميع الناس. وإن كانت هنالك رواية تقول: إن هذا الأمر يحصل ليلة القدر[3]، أي إن ليلة الرغائب هي ليلة القدر. وهنالك بعض الروايات التي تحاول أن تجمع وتوفّق بين هاتين الطائفتين من الروايات بأن تجعل إنزال الأمر على نحو الإجمال في هذه الليلة، ويكون على نحو التفصيل في ليلة القدر[4].

---

(١) للاطلاع على رؤيته عليه السلام في زمن الغيبة الكبرى انظر: بحار الأنوار ٥٢: ١٥٩ ـ ١٧٨.

(٢) الدخان: ٤. (٣) فضائل الأشهر الثلاثة: ٦٢ / ٤٤.

(٤) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٢٣.

على أيّة حال هنالك ـ كما قلنا ـ طائفة من الروايات التي تقول بأنها هذه الليلة، أي ليلة الخامس عشر من شعبان، وتنصّ الرواية على أن كلّ شخص سيكتب له في مثل هذه الليلة إلى مثلها من العام القادم؛ هل إنه سيعيش أم لا، وهل إنه سيوسّع عليه أم لا، وهل إنه سيصحّ أو يسقم، وما إلى ذلك من الأُمور. إذن ففي مثل هذه الليلة يقدّر لكلّ مخلوق أُمور عدّة:

الأول: الآجال

هل إنه سيعيش هذه السنة حتى الليلة نفسها من العام القادم أم لا، حتى إن الرواية تقول: «إن أحدكم ليشتري ويبيع ويتجهّز ولا يدري أنه في الأموات».

الثاني: الأرزاق

وكما ذكرنا فإنه في هذه الليلة أيضاً تقدّر الأرزاق، ففيها يقدّر ما هو مكتوب له أن يرزقه، وأن يعطاه في هذه السنة منذ هذه الليلة وحتى الليلة نفسها من العام القادم، أي ما يمكن أن يحصله وما يمكن أن يدخل إليه من أموال. فكلّ هذا سيسجّل في مثل هذه الليلة، وستحدّد نسبته وقسمه من الرزق، او سيحدّد نسبة الرزق إليه.

الثالث: أمر الحاجّ

ومما يحدّد في هذا الليلة أيضاً أمر الحاجّ، ففي مثل هذه الليلة يكتب كلّ من قُسم له أن يحجّ البيت الحرام في هذه السنة، فهل إنه مكتوب له أن يتوفّق لأداء هذه الفريضة أو غير مكتوب له ذلك.

إذن فكلّ مايتعلّق بحياة الإنسان، وكلّ مايتعلّق بمسيرته في الوجود سوف يحدّد في مثل هذه الليلة.

نظريّة البداء

وهنا نقطة هامة أود أن أشير إليها وهي أن كلّ شيء يكتب في هذه الليلة للإنسان فإنه يكتب تحته: لله فيه البداء. ومعنى «لله فيه البداء» أن هذا سيحصل لهذا الشخص ما لم يبد لله فيه شيء آخر. ومسألة البداء من الأمور التي لم يفهمها بعض المسلمين ولم يهضمها، فلم يتمكن من أن يتقبّلها؛ لذا فإنه راح يهرّج على مذهب بأكمله بسببها، ويتهموننا بالكفر؛ لأنهم يتهموننا بأننا نقول: إن الله تعالى لم يكن يعلم ثم علم. مع أننا لانقول بهذا أبدا؛ فهذا كفر معاذ الله منه.

وهذه كتبنا الكلاميّة ومصادرنا في العقيدة والحديث كلّها تنصّ على خلاف هذا، وكلها تنصّ على أن الله جلّ وعلا عالم حكيم. لكن ببالغ الأسف أقول: إن هؤلاء إما أن يكونوا غير عارفين بحقيقة هذه المسألة ولم يتوصلوا إلى فهمها بشكل صحيح، أو إنهم لايريدون أن يفهموها ويستوعبوها لأغراض معيّنة، وإلا فإننا ليس أحد منا من ينسب إلى الله جلّ وعلا هذا الشيء، بل إننا نبرأ ممّن يقوله في الله تعالى، وينسبه إليه تعالى، ونكفّره ولا نعترف به مسلماً. ولأهمية هذا الموضوع فإنه ليس هناك كتاب من كتب العقائد عندنا إلّا ويتناول مسألة البداء ويتطرق إليها بشكل أو بآخر؛ تارة بتفصيل، وأخرى بإجمال.

ثم إن البداء لم نقل به عن تحكّم أو تعسّف في الرأي، بل إننا نستدلّ عليه بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1]. ومعنى هذا أن هذه الأشياء التي تكتب لشخص في هذه الليلة فإنها إنما تكتب بحسب

---

(١) الرعد: ٣٩.

الظاهر الذي سيكون عليه هذا الشخص، لكن الله تعالى يظهر بعد ذلك في اللوح ما أخفاه عن العباد، لا لجهل منه تقدّس عن ذلك وتنزّه، بل لحكمة ومصلحة يرتئيها جلّ وعلا. وهذا الأمر حاله حال النسخ بلا اختلاف، فالنسخ في الأحكام الشرعية موجود عند المسلمين كافّة ومذكور في كتبهم، بل إن أهل السنة يجمعون على وجوده، ومتّفقون على تحقّقه وحصوله.

وأبرز شيء على ذلك مسألة القبلة التي كانت إلى بيت المقدس ثم بعد ذلك نسخت وجعلت إلى الحرم المكي. فهل إن الله جلّ وعلا لا يعلم أنه بعد ذلك ستحصل أُمور تجعل من الضرورة الانتقال بالقبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة؟ طبعاً لا؛ فإن الله عالم وحكيم، ولا يتصرّف إلّا عن علم وحكمة، وبهذا فإننا نذعن بأن هذا إنما حصل لمصلحة؛ فلمصلحة أبقى القبلة إلى بيت المقدس ولمصلحة نسخها بعد ذلك وجعلها إلى بيت الله الحرام. ولهذا فإن البداء لا يختلف عن النسخ في هذا الأمر: لأن النسخ في الأديان والشرعيّات، والبداء في التكوينيات.

فالشخص الذي يقدّر له عمر مثلاً، ثم يبدو لله في هذا العمر شيء، فإن معناه أنه تعالى إنما قدّر له مثلاً عشرين سنة فيما لو قطع رحمه، أما لو وصل رحمه فإن عمره سيصبح ستين سنة. وهذا يعني أنه قدر له عمراً ما بين العشرين والستين، وتبقى هنالك العوامل الخارجية التي تعمل على جعل هذا العمر عشرين سنة كقطع الرحم وما إلى ذلك من أُمور، أو ستين سنة كصلة الرحم والبر بالآخرين.

إذن فهذا هو معنى البداء، لا أن الله جلّ وعلا علم بعد جهل تنزّه عن ذلك وتقدّس. وموضوع البداء كما ذكرت في أكثر من محاضرة هو

موضوع معقد وعويص، ويحتاج إلى زمن أكبر من هذا؛ لنستطيع أن نقدّم صورة واضحة متميّزة عنه. وبوسع الإنسان أن يقرأ ماكتب عن البداء في كتب العقائد عند الإمامية، فمثل هذا اللون من التفكير السطحي والساذج الذي يرمينا به البعض لا يمكن أن يكون عندنا، فنحن أبعد غوراً، وأعمق فكراً من أن ننزلق في مهاوي هذا التفكير السطحي والساذج الذي يحاول البعض أن ينسبه إلينا. إننا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ننزلق إلى هذا اللون من التفكير السطحي كما ذكرنا، فعقيدة أن الله علم بعد جهل لا يقول بها إنسان مؤمن أبداً، ونحن بُراء ممّن يقولها ويعتقد بها. وهذا هو الذي موجود في كتب عقائدنا، وكتب علم الكلام عندنا.

في مستحبات هذه الليلة

إن على الإنسان أن يستغلّ كلّ طاقاته وجهده في إحياء هذه الليلة المباركة في العبادة والدعاء والصلاة وما إلى ذلك؛ لأنه لايعلم ما الذي خبّئ له في هذه الدنيا من موت أو ماشاكل

وبطبيعة الحال فإن الدعوات في هذه الليلة لاتقتصر على الأمور الأُخروية، بل إنها تتّسع لتشمل الأُمور الدنيوية، فمن الشيء الطبيعي أن الإنسان يحبّ الصحة والعافية والغنى وما إلى ذلك، والسلامة في الدنيا؛ لأن الإنسان لا يعلم ما الذي سيحصل له بعد حين؛ ولذا فإنه قد ورد في الدعاء الشريف: «اللهم إني أعوذ بك من شرّ ما تعلمه ولا أعلمه، وأسألك من خير ماتعلمه ولا أعلمه». وهناك الكثير من الأشياء التي تكون عادة خارج دائرة حواسّنا وعلمنا وقابلياتنا على التنبّؤ والتوقّع، وهذه الأشياء قطعاً نتوجّه إلى الله تعالى بالاستعاذة به منها؛ ليجنّبنا ضررها وأذاها.

ثم إن هذا الأمر ليس ببدعة في الكلام ولا في الاعتقاد، ذلك إن الله جلّ وعلا قد أمرنا بالدعاء، فقال عزّ من قائل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]. وإضافة إلى ذلك وحول هذه الليلة المباركة فقد وردت الرواية بأنه يصدر النداء من ملكين من قبله تعالى: «هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من سائل فيعطى؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ هل من طالب حاجة فتقضى له؟ فأجيبوا داعي الله، واطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ فإنه أسرع في طلب الرزق من الضرب في الأرض، وهي الساعة التي يقسم الله فيها الرزق بين عباده»[2].

وطبعاً هناك من يشفع بذاته وهو تعالى، وهو هنا يريد من عباده أن يحقّقوا معنى العبودية له في هذه الليلة، وهذا الأمر يريده الله تعالى من عباده في كلّ زمان وفي كلّ مكان، لكن التأكيد ينصبّ على هذه الليلة؛ لما لها من خصوصيّة، ولما فيها من بركة وخير، ولما فيها من خصائص جعلتها بهذه المنزلة. والله جلّ وعلا إنما يتفضّل على عباده بكلّ هذا من منطلق الربوبيّة؛ لأنه المالك الحقيقي للأشياء كافّة، فهو مالك الملك، وهو مقسّم الرزق وباسطه، وهو الممتنّ به على عباده. فهو تعالى واهبها وخالقها.

وفي مثل هذه الليلة يكون للدعاء قيمته، وقد ورد في الحديث الشريف «ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء»[3]. فعلى الإنسان في مثل هذه الليلة أن يتوجّه إلى الله تعالى، وأن ينقطع إليه بشيء من الإخلاص والعبودية والتوجّه الكامل إليه جل وعلا، وأن يجتهد إليه بالصلاة بقلب خاشع؛ لأنه

---

(١) غافر: ٦٠.
(٢) الخصال: ٦١٦، تحف العقول: ١٠٦.
(٣) الدعوات (الراوندي): ٢١: / ٣٢.

يرجو من الله جل وعلا أن يعطيه وأن يرزقه في هذه الليلة المباركة الكريمة التي خصّها الله بخصائص وميزها بميزات تفرزها عن الليالي العادية الأُخرى من ليالي الدهور.

وقد نصّ أكثر من مفسّر [1] على أن المراد بليلة الرغائب هذه الليلة المباركة؛ لأنها يقدّر فيها للإنسان كلّ مايتعلق به من أعمار وأرزاق وما إلى ذلك من متعلقات الحياة، فكلّ ماله مدخليه كبيرة في حياة الإنسان وكل شيء هام في حياة الإنسان يكتب في هذه الليلة. وكما ذكرنا سابقاً فإن ما يكتب فيها لإنسان يكتب مذيّلاً بكلمة: «لله فيه البداء»، أي أن هذا هو الظاهر لكم من الأُمور، أما ما خفي فالله أعلم به، فانقطعوا له بالدعاء حتى يكتب لكم خيرا منه، واستزيدوا من الله جل وعلا واطلبوا منه أن يمنّ عليكم وأن يتكرّم ويتفضل.

الثالثة: أنها ليلة نزول الملائكة على شهداء الطفّ

ففي مثل هذه الليلة من كل عام تتنزل أفواج من الملائكة لتترحّم على الشهداء عامّة وعلى شهداء الطفّ خاصّة، فالرحمة ينزلها الله تعالى أحياناً على أيدي ملائكته أي بشكل غير مباشر، فهو تعالى تارةً ينزلها بشكل مباشر، وأُخرى بشكل مباشر عن طريق أحد خلقه. وهنا ينزلها تعالى على يدي كرام مخلوقاته، وهم الملائكة؛ ولذا فإننا نجد في الروايات أن هناك أفواجاً من الملائكة تتنزّل في مثل هذه الليلة، وتتوجّه لزيارة الحسين عليه السلام. وموضوع زيارة الإمام الحسين عليه السلام قد حرص عليه تاريخ الإماميّة بشكل خاصّ حرصاً شديداً.

---

(١) في خصوص قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

وهكذا فإننا حينما نتناول الروايات المختصّة بهذا المجال نجدها مفعمة بالحثّ على الزيارة، ونجدها على درجة كبيرة من الاستيثاق، ومن هذه الروايات ما يقوله الإمام الباقر عليه السلام لأحد أصحابه: «الغاضرية هي البقعة التي كلّم الله فيها موسى بن عمران عليه السلام، وناجى نوحاً عليه السلام فيها، وهي أكرم أرض الله عليه، ولولا ذلك ما استودع الله فيها أولياءه وأبناء نبيّه؛ فزوروا قبورنا بالغاضريّة»[1].

و«لو أن أحدكم حجّ دهره كلّه، ولم يزر الحسين عليه السلام كان تاركاً حقاً من حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله». وهذا هو الشكل الطبيعي لحفظ حق الآخرين؛ لأن المرء إنما يحفظ في ولده، والحسين هو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

كما أن هذا المكان الذي استشهد فيه الإمام الحسين عليه السلام هو مكان قد جسد عليه السلام فيه أهداف رسالة جدّه صلى الله عليه وآله، بمعنى أنه كان الامتداد الطبيعي لجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله على الأصعدة كافّة؛ سواءً كانت صعيد الرسالة، أو صعيد الخُلق، أو صعيد الدين، أو صعيد الدم، وما إلى ذلك ممّا يتعلق بهذا المجال. والحسين عليه السلام في نهضته المباركة هذه ما جاء إلّا ليجدّد ما أخلقه الأُمويّون في محاولاتهم لإرجاع الناس إلى الجاهلية الأُولى، وطمس معالم الدين؛ فالإسلام حينما جاء أصّل حرّيّة الإنسان في ممارسة حياته وعقيدته واقتصاده وما إلى ذلك من أنواع الحريات الشخصية الأُخرى، وكذلك أصّل الحفاظ على كرامته، لكن الأُمويّين حينما جاؤوا أعلنوا نظرية استعباد المسلمين واسترقاقهم والاستحواذ

---

(١) كامل الزيارات: ٤٥٢ / ٦٨٠.

(٢) مر تحقيق كون هذه البنوة بنوة حقيقية في ج٢/ ص ١٦٦ من كتابنا هذا.

عليهم وكانوا يختمون على جباه العبيد[١]؛ ليحقّقوا معنى أن الناس أقنان لهم، وهذا ما حصل في أخذ البيعة القسرية من أهل المدينة بعد واقعة الحرة حيث قال لهم مسرف: تبايعون على أنكم عبيد أقنان ليزيد بن معاوية[٢]. كما إن الإسلام جاء لحفظ أعراً، الناس والتأكيد على طهارة المولد، وعفّة الإنسان؛ رجلاً كان أو امرأة، لكن الامويين خرقوا هذا التشريع وأباحوا المدينة ثلاثة أيام.

وكذلك فإن الإسلام جاء ليكرّم الإنسان وليحقن الدماء وليحفظ للإنسان حقوقه ورزقه، فوضع تشريع بيت مال المسلمين، وكذلك جاء لرفع مستوى الإنسان، ولكن الأمويين صادروا كلّ تلك الحقوق، فقطعوا أرزاق كثير من المسلمين بحجة أنهم شيعة لعلي بن أبي طالب عليه السلام. فكل هذه القيم العالية، وكلّ هذه الأخلاقيات الرفيعة التي نادى بها الإسلام قد سحقت واستهزئ بها وسخر منها. وكان المتصدّون لكل ذلك، ولفعله وتحقيقه أغيلمة من بني أمية، الذين يعبّر عنهم الرسول صلى الله عليه وآله بأنهم ينزون على منبره نزو القردة، قال صلى الله عليه وآله: «رأيت بني أميّة ينزون على منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين القهقرى»[٣].

---

(١) قال ابن أبي الحديد: وكانت بنو أميّة تختم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٣) جامع البيان: المجلّد ٩ ج ١٥: ١٤١. الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢. سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨. فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أميّة ألف شهر.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أميّة. وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير

ولذا فإن الحسين عليه السلام جاء ليحقّق أهداف النهضة المحمدية، وليقف بوجه هذه الوافدات الجاهليّة التي حاول الأمويون إدخالها ودسّها بين صفحات الإسلام وتاريخه. وعليه فإننا حينما نذهب لزيارته عليه السلام فإنما نذهب لنؤدّي بها حقّاً من حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأن من امتدّ برسالته يجب أن يحفظ كما يحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله. وكما قلنا: إن المرء يحفظ في ولده، وإلّا فما معنى قوله صلى الله عليه وآله: «حسينٌ منّي وأنا من حُسين»[1]؟ فالكل يعرف أن التبعيض هنا غير مراد في هذا الحديث الشريف وغير مقصود؛ لأنهم يعرفون بأن الولد بعض أبيه أو جزء أبيه. إذن فلابد أن تكون كلمة «من» هنا لغير التبعيض، أي أن تكون لأمر من الأمور التي ينبغي التوجّه إليها والتنبه إلى المراد الكامن وراءها، وإن لم تكن كذلك فهي أشبه ماتكون باللغو الذي يجب أن ينزّه عنه رسول الله صلى الله عليه وآله.

إذن فكلمة «من» هنا استعملت لغرض آخر، وهو بيان الجنس، بمعنى أن المراد بها السنخية، أي أن الحسين عليه السلام من سنخ رسول الله صلى الله عليه وآله. وبتعبير آخر أن «حسين مني وأنا من حسين» يعني أني حامل لرسالة السماء، والحسين امتداد لهذه الرسالة.

المبحث الثاني: الآثار المترتّبة على زيارة الحسين عليه السلام

وعليه فزيارته عليه السلام تحقّق عدة أمور منها:

الأول: أن فيها صلة لرسول الله صلى الله عليه وآله

فالقرآن الكريم يرفع عقيرته آناء الليل وأطراف النهار وهو ينادي: ﴿قُل

غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1]، و﴿الْقُرْبَى﴾ هنا المقصود بهم آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، الذين ورد بهم حديث الكساء[2]. أما مودتهم فظاهرها الفرح لفرحهم والحزن لحزنهم، ونحن حينما نتوجّه إلى قبر الحسين عليه السلام ونزور ذلك الضريح الشريف المبارك، فإنما نؤدّي نوعا من الآداب الاجتماعية التي اقتضتها آية (المودة في القربى)؛ لأن هذه الزيارة تمثّل مظهراً من مظاهر المودّة.

الثاني: استلهام أهداف الثورة

إننا بهذه الزيارة الشريفة إنما نستلهم أهداف الثورة، وأهداف الحركة، واستبيان أبعادها العقيدية والسياسية وما إلى ذلك مما يتعلق بها.

الثالث: تحقيق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فبهذه الزيارة إحقاق لهذه الفريضة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإنكار له أيضاً؛ لأن هذه الزيارة إنما جاءت لتذكّر بهدف الثورة، وبأن هذه الأصوات في الزيارة إنما ترتفع لتذكّر الناس بهذه الدماء التي أُريقت في أرض كربلاء في موقف الحقّ ضد الباطل، فهذه الدماء قد أُريقت ظلماً وعدواناً ومن غير حقّ. وهذا ما تؤكّد عليه الزيارة الشريفة حيث تقول: «أشهد لقد اقشعرّت لدمائكم أظلّة العرش مع أظلّة الخلائق»[3].

إذن ففي الواقع نحن حينما نزور الحسين عليه السلام فإنما نكون قد حقّقنا

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) المعجم الأوسط ٧: ٣١٩، فيض القدير شرح الجامع القدير ١: ٢١٧ / ٢٠٤.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، المزار: ١٤٤.

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برفع الأصوات للتذكير بهذه الفاجعة التي وقعت أو التي حصلت على أرض الطف، وبهذه الدماء التي أُريقت ظلماً وعدواناً، وبغير وجه حقّ إلّا لأنها وقفت بوجه الباطل وأهله. ومن هذا فإننا نجد أن الإمام الصادق عليه السلام - بل وجميع الأيمّة عليهم السلام - يؤكّد على أن زيارة الحسين عليه السلام في ضريحه أفضل من زيارته بشخصه - أي الإمام الصادق عليه السلام - يقول أحد أصحابه: قلت له: سيدي لقد تجشّمت وعثاء السفر. فقال لي: «لا تشكُ أمر ربّك، هل زرت من هو أعظم مني منزلة؟».

يقول: فعظمت عليَّ المسألة، فمَن هنالك في الوجود من هو أعظم من أبي عبد الله الصادق عليه السلام؟ ومن هو هذا الذي أعظم حقاً عليَّ من زيارة هذا الإمام المعصوم المفترض الطاعة؟ فالتفت إليَّ وقال: «هلّا زرت جدّي الحسين عليه السلام، فهو أعظم حقّاً مني».

وعظم الحقّ هذا إنما جاء من حمل هذه الرسالة، فهذا هو السرّ في قول الإمام الصادق عليه السلام لصاحبه هذا، فهو حمل رسالة النبي صلى الله عليه وآله وامتدّت على يديه، وكأنما قام بأمر لم يُتح للأيمّة عليهم السلام غيره أن يقوموا به؛ ولذا فإنه يؤكد على هذه الزيارة، ويبيّن له بأن زيارة الحسين عليه السلام أهمّ من زيارته هو بشخصه.

وكذلك هناك رواية أُخرى تقول: دخل أحد صحابة الإمام الصادق عليه السلام وهو سدير بن حكيم عليه، فقال له: «يا سدير، أتزور الحسين عليه السلام في كل يوم؟». فقال: لا. فقال عليه السلام: «ما أجفاكم! أفتزوره في كلّ شهر؟». قال: لا. فقال عليه السلام: «أفتزوره في كلّ سنة؟». قال: قد يكون ذلك. فقال عليه السلام: «ما أجفاكم بالحسين عليه السلام! أما علمت أن الله تعالى بعث ألف ألف ملك غبر يبكونه ويزورونه، ولا يفترون؟ وما عليك يا سدير أن تزور الحسين عليه السلام في كلّ يوم مرّة؟».

قال سدير: فقلت: جعلت فداك، إن بيننا وبينه فراسخ كثيرة! فقال عليه السلام: «اصعد فوق سطحك، ثم التفت يمنة ويسرة، ثم ارفع رأسك إلى السماء، ثم تنحو نحو القبر وتقول: السلام عليك يا أبا عبد الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

شبهة حول زيارة الحسين عليه السلام

والواقع أن هؤلاء الذين يظنّون أننا حينما نتوجّه إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام فإننا نقصد عظاماً ونقصد تراباً، إنما هم واقعون في وهم كبير؛ لأنهم لا يعرفون ولا يفقهون الفلسفة الحقيقيّة في زيارة هذا الإمام العظيم الحقّ؛ لأن من يزور الحسين عليه السلام إنما يقف على موقف، ويقف على حركة وعلى مبادئ، وليس على تراب أو على عظام. فهذا تصوّر مخطوء للمسألة. إن الزائر يقف على صرخة مدوّية قد انطلقت من هذا المكان، ولم يستطع أن يحتويها، وهو إنما يقف على مجموعة من القيم والمثل التي جسّدها الإمام أبو الشهداء عليه السلام على صعيد الطف؛ ولهذا فإننا لا نزور عظاماً أو تراباً:

ويا كربلا يا هدير الجراحِ ... وزهو الدم العلوي الأبيِّ
ويا صرح مجد بناه الحسين ... وأبدع في رصفه المعجبِ
ويا عبقاً من عبير الخلود ... يشدُّ الأنوف إلى الأطيبِ
سيبقى الحسين شعاراً على ... أصيلك والشفق المذهبِ[2]

وهكذا نجد أن من يظن أن الذاهب إلى زيارة الحسين عليه السلام أنه يتوجّه إلى زيارة قطعة من تراب أو شباك من معدن، أو قطعة من عظام بالية لهو في

---

(١) المصباح (الكفعمي): ٤٩٠ ـ ٤٩١. (٢) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

قمّة الخطأ وفي قمة الوهم؛ لأنه لم يكن بالذي يدرك الأهداف الحقيقيّة لهذه الثورة المباركة[١].

وأكبر دليل على هذا الأمر ـ هو كون الزائر لايزور عظاماً بالية، ولا شباكاً من المعدن أو الخشب، ولا أرضاً أو تراباً وإنما يزور مُثُلاً ومبادئ وقيماً ورسالة ـ هو وقوف الظالمين أجمع بوجه زيارة هذا المكان المطهّر؛ فقد وقف الظالمون والجبابرة في ذلك الزمان وإلى زماننا هذا بوجه زيارة الإمام الحسين عليه السلام وبوجه من يزوره، وفرضوا على زيارته الضرائب الكثيرة؛ ماليةً ودموية، فلو كانت زيارة عادية أو كانت زيارة عظاماً بالية لما أرعبت هذه الزيارة الجبابرة والظالمين. لقد خشي الأمويون والعباسيّون من أمثال المتوكل وغير المتوكل وذيولهم من بعدهم من هذه الزيارة، فوقفوا بوجهها وحاولوا منعها بكل ماأوتوا من قوة؛ وما ذلك إلّا لأنهم يرون في زيارة هذا القبر إحياءً لتلك النهضة المباركة، وإحياءً لذلك الامتداد العظيم لرسالة السماء المتجسّدة بشخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

واستمر الرعب من هذه الزيارة الشريفة حتى عصرنا الحاضر وقد ظن هؤلاء أنهم حينما يضربون القبر فإنما يضربون مُثُل الحسين عليه السلام، ويضربون مبادئ الحسين عليه السلام، ويضربون قيم الحسين عليه السلام التي هي مُثُل رسول الله صلى الله عليه وآله ومبادئه وقيمه. فالحسين عليه السلام أكبر من كلّ هذه الأفعال الجاهليّة؛ لأنه مضمون، والمضمون لايمكن أن يموت أبداً:

إن تهاوى الضريحُ والجدرانُ ... مما تهاوى الشموخ والعنفوانُ

---

(١) هذه الثورة التي امتدّ صداها حتى خارج البلاد والمجتمعات الإسلامية، وقد ذكرنا سابقاً كيف أن غاندي كان يتمثّل الإمام الحسين عليه السلام في حياته وثورته.

إنـــما تـــهدم الحـــجارة والمـضـ ـــمون يـبقى مـع المـدى ويُـصانُ

إننا لا نقف على قبر فيه مجموعة من العظام، وإنما نقف على صرخة مدوّية شقّت أرجاء الكون ولم تتّسع لها الدنيا: «والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرُّ فرار العبيد»[1].

الرابع: الجانب العاطفي

فكلّ هذه الأُمور التي ذكرناها والتي نستمدّها ونستوحيها من زيارة الإمام الحسين عليه السلام صاحب تلك النهضة المباركة لا تمنع من أن تكون هنالك جنبة عاطفية في البين؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يفرغ من عواطفه ومن مشاعره وأحاسيسه، فلا يمكن لأي إنسان مهما أُوتي ومهما كان أن يتخلّى عن مشاعره وأحاسيسه وعواطفه أو يتجرّد عنها[2].

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها أقرّ إقرار.

(٢) روي أن النبي صلى الله عليه وآله بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال: «إن القلب ليحزن، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الربّ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون». انظر: صحيح مسلم ٤: ١٤٤٢ / ٢٣١٥، التفسير الكبير ١٨: ١٩٤، الرحلة في طلب الحديث (الخطيب البغدادي): ١٤.
وقد بكىٰ علىٰ عمّه الحمزة، وعلىٰ ابن عمّه جعفر. وقال صلى الله عليه وآله: «على مثل جعفر فلتبكِ الباكية». الطبقات الكبرىٰ ٨: ٢٢٠.
وبكى صلى الله عليه وآله علىٰ الإمام الحسين عليه السلام. فقد ورد أن الإمام الحسين عليه السلام دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله، فوضعه في حجره، فإذا عيناه الكريمتان تهريقان الدموع، فلمّا سئل صلى الله عليه وآله عن سبب بكائه، قال: «أتاني جبرائيل فأخبرني أنّ أُمّتي ستقتل ابني هذا»، فقلت: أيكون هذا؟ فقال: «نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء». المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٦ ـ ١٧٧.
قال صاحب (المستدرك): «وهذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين».
وعن أُمّ سلمة قالت: كان النبيّ صلى الله عليه وآله جالساً ذات يوم في بيتي، فقال: «لا يدخلنّ عليّ أحد». فانتظرت، فدخل الحسين عليه السلام، فسمعت نشيج النبيّ صلى الله عليه وآله يبكي، فاطّلعت فإذا الحسين في حجره يمسح رأسه وهو يبكي، فقلت: والله ما علمت به حتىٰ دخل، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ جبرئيل كان معنا في البيت، فقال: أتحبّه؟ فقلت: أما من حُبّ الدنيا فنعم. فقال: إنّ أُمّتك

إذن فنحن لا يمكن أن نتخلّى عن الجنبة العاطفية؛ لأنها مسألة فطريّة عند كل إنسان، وإن كان الهدف الأسمى والهدف الأوّل والرئيس، والهدف الأكبر هو تحقيق الأهداف الثلاثة المارّة التي ذكرناها قبل قليل. ولذا فإننا نتذكّر تلك الدماء التي أُريقت ظلماً، ونتذكّر ذلك الثغر الذي طالما أشبعه رسول الله صلى الله عليه وآله لثماً وتقبيلاً، والذي راحت عصا يزيد تعبث به، ولنكرم ذلك الفم الذي طالما ظلّ مشغولاً بذكر الله دون أن يفتر عنه لحظة واحدة، ولنكرم ذلك الجبين المشرق الطاهر الذي وقع عليه حجر أبي الحتوف الجعفي. إننا نقف على ذلك كلّه؛ ولذلك فإننا حينما نحتضن قبره فإنما نحتضن تلك السمات الكريمة والمواقف الجليلة.

ومن هنا فان الزوار يقفون على ذلك القبر ينتزعون منه كلّ تلك المبادئ والقيم، وأوّل من وقف على ذلك الضريح المقدّس لينتزع منه كلّ ذلك عبيد الله بن الحر، ثم وقف من بعده سليمان بن قبّة، ثم بعد ذلك جابر بن عبد الله الأنصاري الذي قال لغلامه: ياغلام، ألمِسني القبر. فلما أخذ بيده إلى القبر ووضعها عليه، وأحسّ ببرد ترابه صاح: ياحسين، ياحسين، ياحسين. ثم قال: حبيب لا يجيب حبيبه، وأنى لك بالجواب وقد شخبت أوداجك على أثباجك، وفرق بين رأسك وبدنك؟».

وهنا أطلت أُخت الحسين عليه السلام ومن ورائها السبايا يقصدن زيارة القبر الطاهر، وكانت زيارة من نوع آخر، كانت زيارة فيها روح عمليّة، فقصدن القبر ووقعن عليه، وهن يحتضنّه، ثم جلن حوله:

ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء». فتناول جبرئيل من ترابها فأراه النبيَّ صلى الله عليه وآله. كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦. وقال: «أخرجه الطبراني». المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٢: ٢٨٩ / ٦٣٧.

يـا مـن عـلى رغمي نـزلت بـقربكم ردوا سـؤال مسـوله فـي حـيكم

أيـن البـدور الطـالعات بـأفقكم (يـانازلين بكـربلا هـل عـندكم

خبر بقتلانا وما أعلامها)

عـلى كـبر السـبط ذبت نـفسها تـون بـهداي مـاينسمع حسـها

ولم يتأخّر الإمام السجّاد عليه السلام في ذلك المقام بل إنه سمح لهن بالبقاء ثلاثة أيام، ثم أمر بالرحيل، فقال له أحد من معه: يابن رسول الله، دع النساء تتزوّد من أبي عبد الله الحسين عليه السلام. فقال له: «أما إنكم لا ترون كما أرى». قالوا: وما ترى يا بن رسول الله؟ قال عليه السلام: «إني أخشى على عمتي زينب أن تموت، فإنها تقوم من قبر وتجلس عند قبر».

ثم أقبل إليها وقال لها: «عمتي قومي». قالت: عمة إلى أين؟ قال عليه السلام: «عمّة إلى أرض المدينة». قالت: وماذا بقي لي في المدينة؟ وكأني بها:

شـفت ونسـتي وهـضمة اعـيالي بـيت وبگـى مـن الزلم خـالي

تلك الديار العامرات بأهلها

رجـع ٢٦٩
المبحث الخامس: مواقف في حياة الإمام عليه السلام ٢٧١
الموقف الأول: الإمام عليه السلام وأحمد بن إسحاق ٢٧١
أساليب التربية عند أهل البيت عليهم السلام ٢٧٤
الموقف الثاني: الإمام عليه السلام وعيسى بن صبيح ٢٧٤
الموقف الثالث: الإمام عليه السلام وعلي بن أُوتاج ٢٧٦
الموقف الرابع: الإمام عليه السلام وأخوه جعفر ٢٧٧
سجون العبّاسيين ٢٧٩
حول مسألة السرداب ٢٧٩
ضرورة غربلة الموروث الحديثي ٢٨٠
آخر ما نصّ به على ابنه الحجّة عليه السلام ٢٨٢

الفصل الرابع عشر: الحجة عليه السلام

﴿٥٧﴾ وراثة الأرض واستعمارها ٢٨٩
المبحث الأوّل: الاستعداد العلمي والأخلاقي لحمل الرسالة ٢٨٩
أقسام النصّ القرآني ٢٩١
الأول: النصّ ٢٩١
الثاني: الظاهر ٢٩١
المبحث الثاني: المقصود من الأرض ٢٩١
الرأي الأوّل: أنها الجنة ٢٩٢
بيـان ٢٩٦
الرأي الثاني: أنها أرض القدس ٢٩٦
علّة جعل بيت المقدس قبلة ٢٩٦

فرية عبد الله بن سبأ ٢٩٨
الرأي الثالث: أنها هذه الأرض المعروفة ٣٠٠
أقسام العوامل البيئيّة ٣٠٠
الأوّل: العوامل الجامدة (Physical factors) ٣٠٠
الثاني: العوامل الحيّة (Living factors) ٣٠٠
العلم ليس للأديان والأبدان فقط! ٣٠٣
الرأي الرابع: أنها دولة المهدي عليه السلام ٣٠٤
التشكيك بقضية المهدي عليه السلام ٣٠٦
دليليّة التواتر على وجود الإمام المهدي عليه السلام ٣٠٨
﴿٥٨﴾ فكرة الإمام المهدي عليه السلام عند المذاهب الإسلامية ٣١١
المبحث الأوّل: قضية الإمام المهدي في الفكر الإسلامي ٣١١
محاور البحث ٣١١
المحور الأوّل: روايات المهدي في المدوّنات الإسلامية ٣١٤
المحور الثاني: هل إنّه عليه السلام موجود بالفعل أم أنه سيولد فيما بعد؟ ٣١٦
إشكالات أهل السنة على وجود المهدي عليه السلام وأسبابها ٣١٦
الأوّل: أنّ في وجوده عليه السلام خرقاً للعمر الطبيعي للإنسان ٣١٦
الثاني: عدم جدوى وجوده لعدم التمكن من الاتصال به ٣١٧
الثالث: أنّ الاعتقاد بوجوده إلغاء للتكاليف ٣١٧
الرابع: عدم صحة الاحتجاج بالغائب ٣١٧
مناقشة بعض هذه الإشكالات ٣١٨
مناقشة الإشكال الأوّل ٣١٨
أدلة وجود الإمام المهدي عليه السلام ٣١٨

الدليل الأوّل: رواية أنّ الأرض لا تخلو من حجّة ٣١٨
الثاني: رواية من «لم يعرف إمام زمانه» ٣١٩
مناقشة الإشكال الثاني (المحور الثالث) ٣٢٠
الأوّل: أنّ وجوده عليه السلام لطف بالمكلّف ٣٢١
الثاني: أنه عليه السلام يُرى ويستفاد منه ٣٢٢
مناقشة الإشكال الثالث (المحور الرابع) ٣٢٣
الأوّل: أنّ روايات المهدي عليه السلام لا تلغي التكاليف ٣٢٣
الثاني: أنّ الحقّ المراد في الروايات هو حق أهل البيت عليهم السلام ٣٢٤
المبحث الثاني: المردود الإيجابي لفكرة المهدي عليه السلام ٤٢٥
المبحث الثالث: أسئلة وأجوبة ٣٢٦
الأسئلة الكلامية ٣٢٦
السؤال الأوّل: رؤية الإمام المهدي عليه السلام ٣٢٦
السؤال الثاني: رواية «اسم أبيه اسم أبي» ٣٢٦
السؤال الثالث: حول البداء ٣٢٧
السؤال الرابع: الكفر بالله تعالى في مرحلة الاستدلال على وجوده ٣٢٧
أسئلة في تفسير القرآن الكريم ٣٢٨
السؤال الأوّل: تزاحم الجنة والنار ٣٢٨
السؤال الثاني: الآثار الناجمة عن يوم القيامة؟ ٣٢٩
السؤال الثالث: معرفة الملائكة بما سيفعله آدم عليه السلام ٣٣٠
السؤال الرابع: قتل أسرى المشركين ٣٣١
السؤال الخامس: معنى الليل ٣٣١
الأسئلة التربوية والفكرية والثقافية ٣٣٢

السؤال الأوّل: اختلاف الألسنة ولغة آدمعليه السلام ٣٣٢
الأولى: النظرية التوقيفية ٣٣٣
الثانية: العلمية ٣٣٣
السؤال الثاني: كيف يكسب الإنسان صديقاً؟ ٣٣٣
السؤال الثالث: العدل بين الأولاد ٣٣٣
السؤال الرابع: فضل قراءة القرآن الكريم وأمر ختمه ٣٣٥
السؤال الخامس: تركيز مفهوم التوحيد لدى المسلم ٣٣٥
السؤال السادس: خلق الرغبة في النفس للقراءة ٣٣٦
السؤال السابع: اختلاف المسلمين في تحديد يوم العيد ٣٣٦
السؤال الثامن: الأسلوب الأمثل في تربية الأبناء ٣٣٦
الأوّل: طاعة الأبناء آباءهم ٣٣٧
الثاني: نبذ العنف واللجوء للأساليب الحديثة في التربية ٣٣٧
السؤال التاسع: الدعوة في أماكن الفجور ٣٣٨
السؤال العاشر: حربُ الإمام عليّعليه السلام الجنَّ ٣٣٨
السؤال الحادي عشر: قيام دولة إسلامية قبل عصر الظهور ٣٣٩
الأولى: ظلم الانسان نفسه ٣٣٩
الثانية: أن المقصود بـ«الأرض» ليس استيعابها ٣٣٩
السؤال الثاني عشر: إشكال حول خلق الله المعاصي ٣٤٠
الأسئلة الفقهية ٣٤٢
السؤال الأوّل: حرمة لعبة الشطرنج ٣٤٢
السؤال الثاني: العقيقة ٣٤٣
السؤال الثالث: عدد الرضعات الناشرة للحرمة ٣٤٣

السؤال الرابع: نكاح المتعة ٣٤٤
السؤال الخامس: حكم صلاة النساء في المشاهد المشرّفة ٣٤٤
السؤال السادس: حكم تارك الصلاة لفترة من الزمن ٣٤٤
السؤال السابع: حكم وجود الصور في البيوت ٣٤٥
﴿٥٩﴾ المهدي عليه السلام ضرورة دينيّة يفرضها الواقع ٣٤٧
المبحث الأول: فضيلة ليلة النصف من شعبان ٣٤٧
المناسبة الأُولى: إشراقة الحق ٣٤٧
لماذا استأثرت ولادته عليه السلام باهتمام المسلمين؟ ٣٤٩
الأُولى: بلوغ الروايات حدّ التواتر ٣٤٩
اختلاف المسلمين في زمان ولادته عليه السلام ٣٥٢
أسباب إنكار وجوده عليه السلام ٣٥٢
الأول: انتفاء جدوى وجوده ٣٥٣
الثاني: أن في بقائه خرقاً للناموس الطبيعي ٣٥٣
الثالث: انعدام مبرّرات الغيبة ٣٥٣
الردّ على هذه الإشكالات ٣٥٣
الجواب عن الإشكال الأول ٣٥٣
رواية «لا تخلو الأرض من حجّة» ٣٥٦
الجواب عن الإشكال الثاني ٣٥٦
احتجاب عن النظر وليس احتجاباً عن الوجود ٣٥٦
مفهوم العصمة عند المسلمين ٣٥٧
الجواب عن الإشكال الثالث ٣٦٣
الغيبة الصغرى ٣٦٣

الغيبة الكبرى ٣٦٥
الأوّل: أنه لطف بالمكلّف ٣٦٥
الثاني: أنه عليه السلام يُرىٰ ويستفاد منه ٣٦٧
المناسبة الثانية: أنها ليلة الرغائب ٣٦٧
الأول: الآجال ٣٦٨
الثاني: الأرزاق ٣٦٨
الثالث: أمر الحاجّ ٣٦٨
نظريّة البداء ٣٦٩
في مستحبات هذه الليلة ٣٧١
الثالثة: أنها ليلة نزول الملائكة على شهداء الطفّ ٣٧٣
المبحث الثاني: الآثار المترتّبة على زيارة الحسين عليه السلام ٣٧٦
الأول: أن فيها صلة لرسول الله صلى الله عليه وآله ٣٧٦
الثاني: استلهام أهداف الثورة ٣٧٧
الثالث: تحقيق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٧٧
شبهة حول زيارة الحسين عليه السلام ٣٧٩
الرابع: الجانب العاطفي ٣٨١

الفصل الخامس عشر: مسلم بن عقيل

﴿٦٠﴾ ملامح الشخصيّة الرساليّة ٣٨٧
المبحث الأول: دور الشخصيّة الرساليّة ٣٨٧
سرّ اختيار الإمام الحسين عليه السلام لمسلم رضي الله عنه ٣٩٠
حقيقة البنوّة ٣٩٠
المبحث الثاني: الطبيعة الديموغرافيّة لسكّان الكوفة ٣٩١